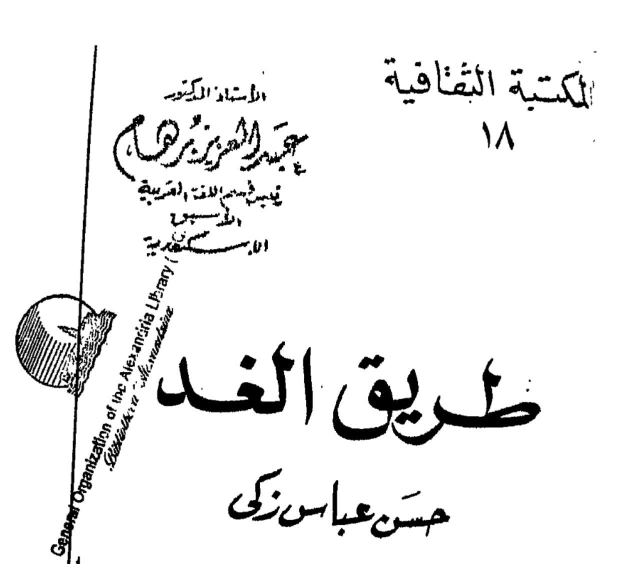
المكتبة الثقافية
١٨

طريق الغد

حسن عباس زكي



المكتبة الثقافية
١٨



طريق الغد

حسن عباس زكى

أول أغسطس ١٩٦٠

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يخرج هذا الكتاب إلى عالم المطبوعات ، ونحن فى أعظم عيد من أعيادنا القومية ، عيد الثورة التى قامت إثر تدهور فى حياتنا الفكرية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية .

والثورات التى تقوم عقب هذا الانحدار تكون لها فلسفتها التى تعالج بها ما طرأ على المجتمع من علل ، وتضع أسس المناهج التى تكفل تغيير أفكاره وطرق تربيته ؛ لتستأصل الجذور الضاربة فى أعماقه ، وتمحو ما ران عليه . . .

على أن تكون هذه الأسس مستقاة من تاريخه ، ومتسقة مع بيئته ، لتربط بين حاضره وماضيه ، وتمهد الطريق إلى المستقبل الذى يبتغيه . . .

وفى هذا الكتاب يستبين القارىء فكرة المجتمع الاشتراكى التعاونى الديمقراطى داخل إطار من الجوانب الفكرية والروحية والاجتماعية ، ولئن كنا قد ألمعنا إلى أدوائنا العامة ، فلم نقصد

إلى بحث مشكلاتنا بحثاً تفصيلياً نستقصى به عللها الظاهرة والباطنة ، وإنما قصدنا إلى بيان العوامل النفسية والروحية التى انتابت هذا المجتمع نتيجة ما تجرعه من كئوس مريرة على أيدى المستعمرين والمستغلين والانتهازيين . . .

ورسمنا الخطوط الأولى التى تهذب وجداننا ، وتفتح منطقنا الفكرى؛ لنهتدى إلى الوحدة التى تشمل هذا الكون ، وعن طريق هذه الوحدة نهتدى إلى الحقيقة التى لا تتجزأ . . .

وبهذا نقدس مصدر الحياة ، ونتخذ منها سلماً إلى الرقى الفكرى ، والصفاء الروحى ، والصعود المادى ، فتتجمع الطاقات المختلفة ، لتبنى الجيل الصاعد على أسس من الخير والمحبة والثقة بالنفس والإيمان بالله وبالقومية العربية ...

حسن عباس زكى

الشعاع الهابط

يتعذر على الإنسان أن يعبر عن الحقائق الروحية باللغة ، ذلك لأن اللغة ، إنما تعبر عن أفكارنا المادية ، وقد كوناها من واقعنا الذى نعيش فيه ، وهى لهذا ، عاجزة عن التعبير عن الحقائق الروحية التى لا تحد معانيها بكلمات محدودة المعنى ، الأمر الذى يضطر الإنسان إلى التعبير عنها بالرموز . . والإشارات ؛ ليستطيع أن يقرب إلى الأفهام مداها وكنهها ، بقصد الهداية والإرشاد والتقويم الروحى ، والمعونة فى سلوك الطريق الصحيح . .

ونحن فى هذا العالم الأرضى ـ وإن جهل أو أنكر كثير منا ذلك ـ متصلون بعالم آخر تربطنا به صلات قوية ، وتشدنا إليه علاقات متينة ، ونحن فى الحقيقة خاضعون لسلطانه إلى الحد الذى يسمح له فى ظروف روحية معينة أن يتدخل فى عالمنا لتوجيهه ، أو لهدايته ، أو لتبصيره بالمستقبل المجهول ...

وتأخذ هذه العلاقات الروحية مظهراً حقيقياً فى الحياة ، يتمثل فى أمواج روحية ذات اهتزازات عالية هى التى نسميها بالشعاع الهابط ، وهذه الاهتزازات فى عالم الروح تفوق

فى علوها وسرعتها ونوعها الاهتزازات التى فى عالم الإنسان ، ويلتقيان عندما يتم التوافق الفكرى هنا وهناك ؛ لأن تنافره يعطل وصول هذا الشعاع الهابط . . أو الاهتزازات الروحية إلى الإنسان ، ويكون الغرض منها فى هذه الحالة هو تزويده بالطاقة اللازمة للإيمان بنفسه وقوته فى سبيل الخير الشامل للبشرية ، وفى سبيل التطور الروحى له . ونحن لا نقول هذا الكلام بشعور دينى ، بل بشعور علمى مدرك بناء على التجارب العلمية التى تمت فى هذا الشأن ، بأن فى الكون قوى لم يعرفها البشر بعد ، وما عرفه منها يسير زهيد ...

* * *

فنى عصور الضعف التى مرت بالأمة العربية ، كان فيها الشعاع الهابط بعيدا بعيدا لا يصل إليها ، ولا يستطيع أن يصل إليها ، لأن كل فرد فى الأمة فى تلك العصور كان يعيش لنفسه ويفكر فى حدوده ، وكانت النتيجة الحتمية لهذا وجود مجتمع متنافر متناحر فى غير طائل ، فالوحدة الروحية فيه لا تكاد تحس لها بأثر ، والوحدة الفكرية أشلاء مبعثرة متضاربة منطاحنة ، ومن شأن هذا التنافر الذى فيه أن يجعل الأثير حوله مضطربا ، فلا يستطيع الشعاع الهابط من عالم الروح أن يوجد التوافق

فى نفس الإنسان ليصل إليه ، وليمكنه من تزويده بالإيمان والثقة والطموح .

وفى مثل هذه العصور المظلمة يتلقى المصلحون والأئمة هذا الشعاع بأرواحهم ، ويحاولون أن ينفخوا فى المجتمع روحا جديدة ، وأن يهبوه العزم والقدرة على الكفاح ، ولكن بلا جدوى ، ورغم أن استعدادهم الروحى لم يكن مهيئا للانفعال بهذا الشعاع الهابط إلى الحد الذى يوجب النجاح ، فإن القليل الذى لهم مهد الطريق للكثير من بعدهم : فقد يحدث أن تكون يقظة المجتمع على يد إمام بلغ من الطاقة الروحية حدا سمح للشعاع الروحى الهابط عليه أن يؤثر فيه ويوجهه ويمنحه المقدرة الكافية لقيادة المجتمع نحو الهدف الحقيقى للحياة .

وهذا الشعاع الهابط هو الذى جعل الشعب العربى يقف ضد الصليبيين فى القرن الثالث عشر ، ويأسر لويس التاسع فى موقعة المنصورة ، كما وقف ضد سلالات المغول فى القرن السادس عشر ، وضد نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأرغم جيوش العثمانيين على الخضوع لرأى الشعب فى أوائل القرن التاسع عشر ، وجعل رشيد تمزق جيوش بريطانيا أشلاء ،

وكذلك عرفه فى كفاح سنة ١٨٨٢ و ١٩٣٥ ، ثم بلغ هذا الشعاع أقصاه فى عام ١٩٥١ ، فبعث ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ...

لقد كانت أمتنا قبل هذه الثورة محرومة من الشعاع الهابط؛ بسبب حرمانها من الوحدة الروحية والفكرية ، ونجم فيها مصلحون ، وتصدر لقيادتها أئمة ، ولكن كان حظهم من هذا الشعاع ضئيلا ، فلم يكن لهم من الأثر فى الناس ما يمكنهم من تحريرهم وهدايتهم وبناء مستقبلهم ، وحين وجد فيها زعيم هيأه الله تهيئة كاملة وأعده إعدادا كبيرا لتلقى هذا الشعاع الهابط ، استطاعت أن تستيقظ من سباتها لتكافح من جديد فى سبيل حريتها التى بها تستطيع أن تعرف الحياة وأن تحس بها .. وأن تؤمن بمستقبلها وأن تشق إليه الطريق ...

والأمة إذا أدركت هذا أعدت نفسها روحيا لتلقى هذا الشعاع الذى يربطها بالسماء ، ويوجه تفكيرها إلى الخير وإلى السلام ، وإلى الإنتاج من أجل سعادة الجميع وإعدادها للنفس يجب أن يتجه إلى تقويمها وتربيتها التربية الحقة ورياضتها على الشدائد وتحمل الصعاب ، وضبط شهواتها ورغباتها ، وتعويدها على الخير والمحبة والتعاون والإدراك السليم للغاية من الحياة ...

إن قيام ثورتنا فى هذه الفترة التاريخية من الحياة البشرية لتقف حائلا بين الشرق والغرب فى هذا الصراع المخيف لدليل رائع تقدمه لنا القدرة الإلهية على اختيارها لأمتنا لتضطلع بحمل الرسالة من جديد ، ولتعلن صوت السماء مرة أخرى بين كل الأمم ، وعلى مسمع من كل الشعوب ، ونحن ملزمون بحمل هذه الرسالة ، ومسئولون عن هذه الأمانة ، فيجب علينا لهذا أن نكون أهلا لأعبائها وأكفاء لأهوالها ، وذلك لا يتأتى إلا بالجهاد والعمل وبالألم والتأمل ، وبالحكمة والحب والاخاء والتعاون بكل ما يرفع الحياة ويعليها ، ويحررها من الجشع والاستغلال ، ويؤمنها من الخوف والجوع ، ويوحى لها بالثقة التى لا حد لها ، وبالطموح الذى لا نهاية له . . . . . .

إن على أمتنا أن تلتزم بوحدة الروح والفكر فى الفرد وفى الجماعة ، حتى تتلقى معونة السماء عند الشدائد ، وتظفر برحمة الله عند الكروب .

فهذه الوحدة هى التى تشد الإنسان إلى الحياة ، وتعمق إحساسه بالوجود ، وتوجهه فى أخوة وتعاطف إلى وحدة أكبر وأعم ، وتكشف له المادة وما وراء المادة ، وتجعله يدرك معنى الزمن دون ابتداء ولا انتهاء ؛ لأن إدراكه مرهون بالتناسق

الروحى بين القوانين النفسية والقوانين المسيرة للكون ، وعند ذلك تكشف للأفراد نفوسهم ، كما تكشف لهم قوى الطبيعة وتدفعهم إلى الحركة المستمرة ، وتمنحهم القوة على الحركة فى سبيل التطور ، فيعبئون كافة الجهود للعمل فى كل مرفق من مرافق الحياة ، ويستقبل كل فرد يومه بدعاء الرسول : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل » .

وبهذه الوحدة تعمل الدولة على ربط السياسة الاقتصادية ، فى حياة الفرد والجماعة بالحياة الروحية ، وبالسيادة العلمية والخلقية والاجتماعية ، وتعمل على تفاعل هذه السياسات كلها ، فتضع أسس التخطيط ، وتحدد الأهداف ، وتعد الوسائل التى تحقق هذه الأهداف ، وتسعى لإحراز النمو السريع ؛ لتصل إلى أقصى زيادة ممكنة تهيء لكل فرد سبل العيش الرغيد والحياة الوارفة الظلال .

وهذا التفاعل فى كافة النواحى هو الذى يدفعنا إلى الطبيعة لنستخرج كنوزها ، وإلى البحث فى الأرض لتتفجر عيونها ، وإلى إيقاظ العقل فيمزج بين الطبيعة والعمل ، ويوافق بين المادة والروح ، ويحدونا إلى الاتجاه إلى القومية التى تنأى عن التنافر والاشتراكية التى لا تقر الظلم ، ويبصرنا بالحقائق التى لا تجعل للرجعية علينا سلطانا ، ويضىء السبل لدراسة المشاكل ،

والتوفيق بين المصالح ، ويدفع عجلة التقدم بعد أن دعمنا الاستقلال ، وقضينا على الاقطاع ، وسيطرة رأس المال .

وهو الذى يحول بين الفرد وبين التغالى ، فى طلب الملذات ، ويجعله يحرص على الوقت حتى لا يضيع فى اللهو والفساد ، وينادى بالتربية الاستقلالية ؛ ليتعود كل فرد حمل الأعباء ، وتقدير التبعات ، وتحمل التضحية فى ميدان العمل ، ويدرك أنه مسئول عما يناط به « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

هذه الوحدة هى التي خلقت من سكان البادية قديما قوة تختط من شئون السياسة والإدارة والتنظيم الاجتماعى ما تعمل الدول الآن جاهدة للوصول إليه حتي تتوفر لها الطمأنينة ، وتخفف عن نفسها آلام الحياة .

وهى التي جعلتهم يدركون أن الإنسانية فى كل بقاع الأرض يرتبط بعضها ببعض لا تعرف الوطن المحدد ولا تقر بالجنس ، ولا اللون ولا الأصل ، فكلكم لآدم ، وآدم من تراب ، وفى الحديث القدسى : « إن كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى » . وحين يقول الصحابة للنبي : « إنا لنرحم أولادنا وزوجاتنا وما نملك » يرد عليهم صلوات الله عليه : « ليس ذاك ولكنها رحمة العامة » .

ويقول عليه السلام : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به

على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

وهذه هى المثالية التى لا يسمو إليها أى مذهب من مذاهب السياسة أو الاقتصاد ، وهى تقرير حق الإنسان فى الحياة الحرة الكريمة ، ومحاربة الاحتكارية ، والحيلولة دون قيام الإقطاع والرأسمالية والانتهازية والإثراء على حساب الغير .

وحين تخلت الأمة العربية عن وحدتها الروحية والفكرية ، دب التنافر بينها ، واختلف أفرادها فى الأهواء والمشارب ، فتخلت عنهم رحمة السماء ، وانقطع الشعاع الهابط عن إمدادهم بالقوة التي تجمعهم وتنظمهم ، فتكونت فيهم الطبقات المتفاوتة ، وانتشر الاستغلال بكافة صوره ، وتغشت الأبصار والعقول سحائب حجبت الحقائق .

وظل ذلك إلى أن أذن الله للمجتمع العربى أن يعز بعد ضيم ، ويكرم بعد مذلة ، ففتح أمام العقول آفاق الحقيقة ؛ لتقتبس من أشعتها ما يعينها على تحقيق التكامل ، وبعث فيها من نوره حرارة تدفىء أرواحها ، وتشعل قلوبها بجذوة الإيمان .

وذلك لأن مقومات البنـاء فيه راسخة ، وجذور البقاء أصيلة ثابتة .

المجتمع العربي

كل مجتمع يراد له الثبات يجب أن تتوفر فيه العقائد الراسخة،والفطرة السليمة والإرادة المشتركة ،وقد حظى المجتمع العربى دون غيره من المجتمعات بعقائد كتبت له الخلود ، وتهيأت له من القواعد الثابتة ما لم يتهيأ لسواه من الأمم ، وحوى الفطرة الإنسانية فى أجلى ما تكون عليه من الصفاء ، وصار واقعاً جغرافياً ودينياً وحضارياً سجل له تاريخاً حافلا بالمفاخر ، مليئا بالمجد الذى أسداه للإنسانية والحضارة ، فالبقعة التى استقر فيها هذا المجتمع هى بمثابة مركز الدائرة للكرة الأرضية ، هبط فيها الوحى ، وشعت منها أضواء الرسالات تحمل للإنسانية الهداية والرشاد ، وعنها أخذ العالم منذ القدم لغاته ودياناته ، وتعلم حروف الكتابة وأرقام الحساب ، وسائر المعارف الإنسانية ، وما من حضارة من الحضارات إلا ونبعت منها ثم شقت طريقها إلى غيرها من البقاع .

وتتفجر من باطن أرضها ينابيع البترول ، وتحوى مياهها الخير ، وتدنى بحارها مشارق الأرض إلى مغاربها ، ويدين أهلها بالخلود وامتداده بعد الموت ، وتربطهم المصالح الاقتصادية

والسياسية والاجتماعية ، وتجمعهم الإرادة المشتركة فى وجود مجتمع متناسق مؤتلف ، كما تجمعهم وشائج الآداب القولية والفعلية والعادات التى درجوا عليها وألفوها منذ القدم ، فأشركتهم فى الأحاسيس والعواطف ، وطبعت عقولهم وقلوبهم وأفكارهم على وحدة أسمى مما رسمته السياسة من حدود . ويدينون بغاية الفرد من حيث هو شخصية لها حريتها وكرامتها، وبغايته من حيث كونه عضواً فى جماعة له ما لها وعليه ما عليها ، لا يعنون الفردية المطلقة ، ولا الحرية المطلقة ، وإنما يعنون التربية الاستقلالية التى تؤهل نمو الذات بما فيها من قوى واستعدادات خاصة تنهض به كفرد ،وتوجهه لخير المجتمع وحاجات التضامن فى حدود الحق والعدل ، وتجنب الهوى ، نيتجه إلى الاتساق مع القوى العليا للكون ، والطاعة للقوانين ومراعاة الحرمات ، وتتكون فيه الأخلاق التى تؤكد العدل ، وتهيء الحماية الفعالة للآخرين ، ولا ترتضى الفوضى التى تجعل القوى يستبيح الضعيف ، والخبيث يتلاعب بالطيب ، والجشع يستأثر بإنتاج العامل ، وبهذا التآلف يسود الأفراد الشعور بالوطنية التى يتلاقون فيها على مصلحتهم العامة والخاصة ، ويتحقق ازدهار العلم ، وترقى الحياة الاجتماعية الكريمة ، ويشيع العدل الذى يربى

روح الإخاء والمساواة . فيعمل على نمو الاقتصاد مقدراً أن عنصر الاستهلاك فى الاقتصاد هو الفرد ، ومقدراً فى الإنتاج أن الفرد حقيقة موجودة والجماعة أيضاً حقيقة موجودة ، فمن كان قادراً على الإنتاج دون استغلال أتيحت له وسائل الإنتاج ، وإلا فإن التعاون هو خير حل لمشاكل الاقتصاد ، على أن يكون للدولة حق الإشراف ، كما أن لها أن تتولى بنفسها أمر الإنتاج الذى يتطلب نوعاً من الاحتكار .

ونحن حين نستعرض المجتمع العربى فى ظروفه التاريخية ، وفى الأطوار التى مر بها فى الأجيال البعيدة نجد لهذه العقائد والمبادئ شعباً عميقة الجذور فى نفس كل عربى فى أية بقعة أينما كان ، تجسدت فيه هذه المبادئ ، وظهرت فى صورة تقاليد راسخة من الأخذ بالثأر وإكرام الضيف ،وحماية الجار وصيانة الحرمات حين كان يعيش فى الصحراء ، وحين خرج من الجزيرة وتلاقى بغيره من الأمم والشعوب كمنت فيه قواعده الاجتماعية ، وتفكيره الفطرى ، وظل شعوره بذلك متصلا قويا ، لأنه أدرك أنه إن فقد هذا الشعور ، فقد نفسه وشخصيته فى غمار الحوادث ، وضاع تاريخه فى زحمة الشعوب ، وانتهت غايته فى طريق التطور الصاعد لبنى الإنسان .

وظلت هذه المبادىء الخالدة سمة المجتمع العربى فى كل ما قام به من عمل ، فتح العرب البلاد فلم يفكروا فى أن يكونوا سادة أو يكونوا استغلاليين أو طغاة ، تركوا نظام الحكم والسياسة لأهل البلاد ، وبشروا بروح الإخاء والمساواة والشورى ، ونشروا ألوية العدل . . . فانتشرت مبادئهم حتى فى عهود ضعفهم السياسى والعسكرى .

وظهرت أغوار هذه المبادىء وصلابتها كلما منوا بالهزيمة ، أو أحسوا بالخطر المقبل ، أو عندما يكافحون لتحطيم الأغلال وتحرير الوطن ومقاومة الدخيل ، فحينئذ تنتفض قوميتهم وعقائدهم ، وتعود بهم عبر تاريخهم ، وتبعث فيهم تراثهم الفكرى والدينى ، فتنفتح أمامهم آفاق البعث والحرية ، وتتكشف معانى الإنسانية .

وإن التاريخ ليحدثنا كيف ارتفع صوت المؤذن إلى جانب صوت الناقوس يعلنان التضحية والأخوة ، ويدفعان ريح الاستعمار العاصف ، ويؤديان رسالة الوطنية أيام العدوان على الشرق ، وخرجت الأمة العربية من هذه المعارك أشد ما تكون ألفة وصلابة وتماسكا .

وكذلك كان الحال أيام الحكم العثمانى للبلاد العربية ، فإن

جميع الوسائل التى تتقرب بها الترك للعرب لم تجدهم نفعاً ، ولم يصنع لهم شيئا إثارتهم للعواطف الدينية ، ولا انتزاعهم للخلافة من بنى العباس ، فقد تحطم كل ذلك على صخرة القومية العربية التى وقفت سداً منيعاً أمام الغزاة والطامعين ، وكانت حصنا حصيناً للمجد الخالد للأمة الخالدة . . .

ولقد أدرك الاستعمار هذه الحقيقة ، وأيقن أن هذه الأمة لن تموت وهى تحمل فى أغوارها « أكسير » البقاء ، ولكنه لم ييأس ، ولم يقف ساكتاً أمامها ، فعمل على تمزيق أوصال العرب ، وتضليلهم عن تاريخهم المجيد ، واصطنع لذلك عملاء وحدوداً وتاريخاً . . . وعمل بكل طاقته فى أن يعمق الفوارق ، وأن يوسع الخلاف ، وأن يشعل نار العداوة بين الأقاليم ؛ حتى يكون أول شىء يأكله منهم هو قوميتهم وعقيدتهم وصلابتهم ، وظن الاستعمار أنه قد نجح ، ولكنه فى الواقع لم ينجح إلا فى صنع العملاء ، أما الشعب فإن حقيقته ظلت فى نفسه تناديه كلما سكن ، وتدفعه كلما وقف ، وتوقظه كلما غفل ، وتذكره بتاريخه كلما بدا عليه أنه استسلم لقبضة النسيان .

ذلك لأنه يعيش فى ظلال الحقائق الروحية ، يتخذ منها ظهيراً تطمئن إليه النفوس ، وتهيىء له الاتصال بقوى عليا ،

لا تقر بتقديس ، ولا تعترف بواسطة ، ولا تخضع لأى نوع من أنواع الارستقراطية ، تبث فيه النواميس الأخلاقية التى تتسلط على الأهواء ، وتستنير بها القلوب ، فلا ترى بين الإنسان وبين الله إلا الحق والخير والجمال ، ولا ترى بين الناس وبين بعضهم إلا الرحمة والمحبة والعدل .

وهذه النواميس لا تخدعها أباطيل من يدعون أنهم يملكون مفاتيح الأسرار . . . ويتحدثون عن تطور المادة ، ويفسرون الحياة والتاريخ على ضوء هذا التطور المادى ، وهم مهما تفننوا فى تفسيراتهم ، لا يمكن أن ينزعوا من المجتمع العربى فطرته الروحية ، وهم حين يحاولون أن يغيروا التاريخ ويمحوا صحائفه الماضية إنما يبنون على هواء ، ولن يجدوا ما يعينهم على الاستمرار والبقاء .

إن شمائل العرب ، وأخلاقهم التى فطروا عليها ، وتمسكوا بها قل أن توجد فى غيرهم من الأمم بالصورة التى وجدت بها فيهم ، وهذا أمر قررته فصول التاريخ على المدى الطويل ، وشهدت به التجربة ، واستقر به الواقع . . . فالكرم والإيثار من الشمائل العربية التى يوجد مثلها فى الأمم الأخرى ، ولكن الكرم هنا غيره هناك فى الطريقة والدافع ، والشعور الإنسانى ،

والشجاعة عند العربى تاخذ طابعاً آخر غير طابعها عند بقية الشعوب ، وصحيح أن البيئة لها حظ كبير فى توجيهها ، ومنحها الكمية الكافية من الصلابة والعنفوان ، إلا أن الحظ الأكبر فى ذلك لطبيعة النفس العربية التى تمنح للشجاعة الصلابة والحكمة معاً . . . فإذا استثنينا بعض الأمثلة النادرة، فإننا نستطيع أن نقول إن الشجاعة عند الشعب العربى لم تصل إلى حد التهور الذى ينتهى بالشجاع إلى الخاتمة التى ينتهى إليها من لا يدرك عواقب الأمور ولا يحسب حساب النتائج من مقدماتها .. ولكنها تصل عنده إلى درجة التضحية والفداء على أساس من الحكمة ومصلحة البشرية ، وإيمان بالمثل العليا المنشودة . . .

وقد كانت النفس العربية قبل الإسلام كالأرض المجهولة .. التى لم تطأها قدم إنسان . . . تنمو فيها الفضائل بالفطرة ، ولكنها بلا غاية ولا هدف ولا نظام ، وكانت قبله متفرقة متخاصمة ، تقضى حياتها كلها فى كفاح مرير مع الطبيعة والإنسان . . كفاح لا هدف له ولا عقيدة فيه . . فلما جاء الإسلام، كان أول ماسعى إليه هو توحيدها ، وتوجيهها ، وتزويدها بالغاية السامية ، والمقصد الشريف . . . وقد أدرك من البداية قوتها الكامنة التى لم تستغل بعد لخير البشر ، كما رأى أنها تعيش وهى لاتعرف

ذاتها ، وتسلك طريقاً غير طريقها ،فمازال بها حتى جعلها تؤمن إيماناً عميقاً بذاتها ورسالتها للناس سالكا بها طريقها المرسوم ، فاستطاعت فى مدة قصيرة ان تجرف أمامها قوى الشر فى العالم ، وأن تفرض رسالتها على كل الشعوب فى كل البقاع بما هيىء لها من مكان وسط بين الشعوب ، تستطيع منه أن تتصل بها جميعاً فى يسر وسهولة ، كما ميزت بصفات مادية ومعنوية تعتبر وسطاً أيضاً بين الصفات التى للأمم المختلفة ، فالعربى وسط بين البياض والسواد ، وهو ليس بالعملاق الفارع ، ولا بالقزم القريب من الأرض ، وهو لا يبلغ من العمر أرذله ، ولا يموت قبل أن يصل إلى العمر الذى يتسع لأداء ما يجب عليه أداؤه ، وشمائله التى أشرنا إلى بعضها وسط كذلك فى شمائل الأمم والشعوب ، ولم تكن المغالاة إلى حد الإفراط،أو التفريط،من خصائصها ..

وهذا كله يقرب إلى أفهامنا معنى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس . . » كما يبين لنا فى وضوح لماذا اختار الله هذا الشعب دون بقية الشعوب ليحمل رسالته ، ولماذادفعهليخرج من صحرائهإلى بقاع الأرض لينشرها على العالمين .

إذا نحن أدركنا هذه الحقيقة إدراكا سليماً ، أمكننا أن

نعرف حق المعرفة من نحن ، وأين مكاننا فى هذا العالم . . . ، وما هو الواجب الملقى على عاتقنا للبشرية كلها . . لا للأمة العربية وحدها . .

لقد جعلنا الله شهداء على الناس ، وهو لم يجعلنا كذلك إلا لحكمة عليا ليس من العسير علينا أن نراها ، ونشعر بها . . . وشهادتنا على الناس تفرض علينا إجلالها . . وأن نعد أنفسنا فى هذه الحياة لحملها . . وأن يكون إعدادنا لها أساسه العلم والخلق والقيم الإنسانية التى ندين بها ، والتى أبدعتها قدرتنا الروحية فى تاريخنا العريض . . .

إن الشهادة على الناس أمانة ، وقد عرضها الله سبحانه على الأرض والجبال فأبين أن يحملنها ؛ لعظمها وثقل وطأتها وضخامة مسئولياتها وحملها الإنسان ، وحملها من بنى الإنسان بنو الأمة العربية بتكليف إلهى وسلطان سماوى ، فاقتضاهم أن يدركوا معنى رسالتهم وأن يروا ببصيرة واعية مكانهم فى الوجود . . . إن المجتمع البشرى يرزح تحت عبء الاستغلال بكافة صوره فعلينا أن نحمل إليه العدالة ، وهو يعيش فى ظلام الخوف من المستقبل ، فلنحمل إليه الأمن والطمأنينة ، ولنمنحه إيماننا بالحياة . . . . والخلود ، ولنمض به إلى ينبوع الحقيقة الأسمى ليعب منها ما شاء ؛ ليجد نفسه

فى النهـاية إنساناً بلا خوف ، ولا يأس ، ولا استسلام ...

ونحن لن نفعل ذلك إلا إذا بدأنا بأنفسنا ؛ لنستطيع أن ننتهى بالناس . . .

إن مجتمعنا الذى كنا نعيش فيه قد ران عليه الخوف والتشاؤم ومزقه الطغيان ، واستبد به الاستغلال ، وقد استطعنا بالرغم من ذلك أن نستيقظ . . . لنبنى مجتمعاً إنسانياً جديداً على أساس قوميتنا العربية بوصفها الذى ذكرناه وبمهمتنا الإلهية التى حملناها ، وكان فهمنا لحقيقتنا وإحساسنا القوى برسالتنا من الدوافع النفسية العديدة التى جعلتنا نمد أيدينا للضعفاء ، ونعطى خبرتنا فى الكفاح لكل المستعبدين ، ونعمل لبناء مجتمع اشتراكى يتعاون فيه كل فرد مع الآخرين فى محبة وثقة وعدالة مطلقة ، بل جعلتنا كذلك نقف فى عزم وإصرار وثبات أمام جحافل المعتدين وتحت قنابل المغيرين ، وننهج سياسة الحياد الإيجابى ، ولم نفقد لحظة إيماننا بأن النصر لنا ، وأن قوتنا الروحية ستقهر الأساطيل ، وتهزم الجيوش ، وتدك القلاع ، وبهذه القوة نفسها أدركنا ذاتنا ، وحملنا مشعلنا ومهدنا إلى

غد تاريخنا ، وكما حفظنا فى الماضى العلم من الضياع ، والشعوب من الانهيار ، وكما قدنا موكب الإنسانية فى طريق التطور فى أجيالنا البعيدة فإننا سنقود العالم مرة أخرى إلى طريق الهداية تحقيقاً لقوله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

إن إيماننا بالنصر والعمل هو الذى وهبنا تلك الطاقة الكبيرة التى ندعم بها كياننا ونصون بناءنا ، ونفتح الطريق أمام تاريخنا .

الإيمان

إن المولد الأعظم للطاقة الروحية التى لابد منها للنهوض إنما مبعثه فى الحقيقة هو الإيمان ... الإيمـان الذى يكشف للإنسان حقيقته وحقيقة الـكون ، ويمد بصيرته بالنور الذى يهديها إلى إدراك هذا الترابط الأزلى بينه وبين الحق المطلق ، بينه وبين القوة الخالقة والمنظمةلهذا الوجود الممتدفى سعة لا نهاية لها ، وفى نظام لا خلل فيه قيد شعرة ، ولا تعارض بين قوانينه المتضادة فى الآزال والآباد معاً،وهذا الإيمانالذى نشير إليه هو الأساس لـكل إيمان ... هو الأساس لإيمان الإنسان بالله وبنفسه وبوطنه وبجميع الحقـائق الشريفة التى وصل إليها العقل البشرى فى جميع العصور والأجيال،وإنما كان كذلك؛لأنه مصدر لجميع الأفـكار الإنسانية التى وصل إليها الإنسان فى حياته منذ البداية كالعدل والشرف والإباء والتضحية ... ولأنه خالق للعزاء الذى لابد منه لاستمرار الحياة ، وخالق للغاية منها ، وللأمل الذى بدونه تصبح الحياة عبئاً لايطاق وعبثاً لايحتمل ، وهذا هو الذى لم يستطع المـاديون أن يدركوه ، وكان من نتائج عدم إدراكهم له أنهم أخطأوا النظر إلى الإنســان فحسبوه آلة

تسيرها القوانين الميكانيكية التى تسير كل آلة وما هو كذلك ، فالإنسان فى الواقع قوة روحية ضخمة، قوة تكمن فى نفسه لا تستطيع أن تقف أمامها أية قوة مادية مهما بلغت ، وهذا هو سر تفوقه ، وسر بقائه ... كما أنهم أخطأوا أيضاً فى النظر إلى الوجود فحسبوا أن نظامه وتكوينه ، وصفاته وحوادثه صدفة ، والحقيقة أنه ليس كذلك، فالحركة فيه والنظام لا يمكن أن يكونا صدفة لأن الاستمرار فيهما ينفيها ، وقد ذكر علماء الفلك أن النسب التى بين الأجرام السماوية ـ والمعروف لنا منها يعد بلايين المجموعات الشمسية ـ تشبه النسب التى بين السلالم الموسيقية، ومعنى هذا أن النظام الهرمونى فى ذلك اللحن الإلهى لا يمكن أن يكون إلا عن تدبير ...

والإيمان الذى يفهمه الماديون لا يمثل إلا شعبة واحدة من الإيمان الذى نفهمه نحن ، شعبة لا تلبث أن تموت إذا انفصلت عن جزعها الذى يمدها بالغذاء والحياة ... بل هو إن شئت إيمان لا معنى له، لأنه يتصل بقيم مادية بحتة لا توحى للإنسان إلا باليأس والقنوط ، وتقفل أمام روحه الثغرات التى لا تعترف بها مسالك السماء ، وتسد عليه جميع منافذ العزاء ، حتى أنك لتجده من فرط حيرته ويأسه إنساناً بلا أمل ، بلا غاية ، بلا مصير . والمجتمع

الذى تحكمه الأفكار المنبعثة عن هذا الإيمان المادى مجتمع فقد حريته؛لأنهأصبح عبداً للضرورة ،وآلة تديرها وتسكنها الحاجة ، وفقد نفسه ؛ لأنه بلا أمل ولا مستقبل ، فهو مجتمع غير سعيد ، مجتمع غير مستطيع أن يخلق السعادة للفرد والجماعة ؛لأن السعادة شيء غير الخبز ، وغير الآلة ... ومجتمعنا الذى تبنيه الثورة ، وتخطط له حياته ، وتدعم له مستقبله بهذه الانتصارات الضخمة فى شتى الميادين — مجتمع يحكمه الإيمان بالقوة المسيطرة على كل شيء والمدبرة لكل شيء والإيمان بالإنسان كقوة روحية هائلة ، فهو مجتمع لا تحكمه إلا الأفكار المنبعثة عن الإيمان الروحى ، وهو مجتمع وجد نفسه ، وعرف حقيقته ، وأرسى قواعد حريته لأنه يريدها ، وهو صاحبها ولأنه بدونها لا يبدع ، ولايشق طريقه إلى الغد المنتظر فى كفاءة وشجاعة .

الإيمان كقوة روحية هائله يمدنا بالقوة الضرورية لبناء مجتمعنا على أسس اشتراكية ديمقراطية ، تعاونية ووشائج الإيمان فى نفس مجتمعنا راسخة رسوخ الجبال ، وكل فرد فيه يشعر شعوراً عميقاً أنه جزء من هذا الكون ، وأن صلته به لا تحدها تلك الحياة القصيرة الفانية ... وأنه بهذا الإيمان الراسخ فى نفسه يستطيع أن يبدع وأن يعطى الحياة ... وأن يحس بالسعادة الحقة

لإدراكه الكامل ان المجتمع الذى هو جزء منه كالقطعة الموسيقية، وأن له دوراً يؤديه حتى ينتهى النغم فى لحنه بلا نشاز ولا غموض ...

والسر فى قوة المؤمن أنه يستمدها من قوة أزلية ... خالقة ... مسيطرة على كل شىء، وشعوره بهذا أعطاه ثقة هائلة فى مقدرته ، ولم تزده اكتشافات العلم ، ولا معجزاته إلا إيماناً على إيمان، فالخلية الحية تحمل عنده من الدليل عليها ما يحمله الكون كله . ذلك أنه مدرك بفطرته السليمة أن الترابط الأزلى ، وأن قوانينه الأولى لها علة واحدة أوجدتها وقامت دليلا عليها ... ومن هنا كانت القيم الروحية لشعبنا أعظم قوة وقفنا بها نغالب أعداءنا فى بور سعيد حتى غلبناهم ، ونشق بها طريقنا للمستقبل فى عزم وإصرار، والإيمان الذى ننشده منبعثاً من الإيمان الأكبر يجب بالضرورة أن يتسق مع دور كل فرد فى المجتمع وإلا انتهى الحال بالدولة إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله ... فإيمان الطالب بالعلم ، وإيمان العامل بالعمل ، وإيمان الموظف برسالته وإيمان صاحب المصنع بحقه وحق صانعه أساس المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى . فإيمان الطالب بالعلم يوجب عليه أن يسخره لخدمة البشرية وللسلام ، ولتعمير وطنه و بناء مستقبله، وإيمان

العامل بالعمل إنما يكون بوفرة الإنتاج ، وبذل أكبر ما يمكن من الجهد لزيادته ، وطلب حماية الدولة من استغلال رأس المال له ، وسن القوانين التى تكفل له السعادة الحقيقية ، وتوفر له الاستقرار النفسى فى حياة كريمة مستقلة فى إطار المجتمع الكبير ؛ ليكون إحساسه بقيمة التعاون الاشتراكى إحساساً لا زيف فيه ولا خداع ، وإيمان صاحب الصنع بحقه وحق عماله لا يكون إلا بأن لا يطغى برأس ماله على حق العامل وحق المجتمع الذى يخدمه ويأخذ منه أرباحه ، ولا يطغى به على الحكم فيوجهه لخدمة مصالحه دون النظر إلى تعارضها مع مصالح الأفراد والجماعات ... وهذه هى الصورة المثلى للمجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ، وهى صورة تظللها أفكار المبادئ الروحية التى تنبثق عن قيم ورثناها جيلا بعد جيل ونحرص عليها حرصاً شديداً ؛ لأنها هى القوة الدافعة والمحركة لجميع الخطط والمشروعات التى فكرت فيها الثورة ، وهى تفكر تفكيراً اجتماعياً سليما بضمير الإيمان الروحى والقيم الأخلاقية الموروثة ...

والتفكير هو الخطوة الأولى للتخطيط الصناعى والعمرانى ، وهو يأخذ مجراه المستقيم إلى المستقبل بدعامات قوية من الروح والقيم الغالية التى ذكرناها ... وتوحيد الفكر البشرى لصالح

البشرية كلها أمر لابد منه ؛ لأن الأفكار فى الواقع كائنات حية تتمثل لنا فى جميع ما يبدعه الإنسان وما يكتشفه، وما يصل إليه من حقائق الكون والنفس والمادة ... والتعاون الفكرى للبشر يمد الإنسانية بطاقة روحية ضخمة تكون قادرة من غير جدال على تطوير الحياة ورفع مستواها ، واكتشاف أبعادها وأغوارها ...

ولكن كيف يمكن أن نهيء البشر للتفكير الموحد . . . ؟ إن ذلك لا يمكن أن يتم بتوجيه المبادىء المادية؛ لأنها قاصرة وعاجزة تماماً عن إدراك حقيقة الحياة والوجود ، وقد عصبت عينيها فلم تعد ترى أو تحس بذلك المشعل الخالد الذى يتوهج نوره فى كل الأشياء ... ويعبر فى صدق وعمق عن الحقيقة الأزلية الأولى ومصدر كل الحقائق فى الكون جميعاً ...

ولهذا كان لابد لنا من دراسة طريقة التفكير ، حتى نضع الأسس لتوجيه وتربية الأجيال القادمة ، تلك الأسس التى تهيء لها حياة فيها رفاهية ، وفيها تعاون اشتراكى ديمقراطى .

ويلزمنا لذلك أن نتحدث عن صلة الفرد بالمجتمع ، وأثر هذه الصلة فى تربيته وتقويمه .

* * *

الفرد والمجتمع

ومن القضايا الاجتماعية الكبرى التى اتفقت عليها الآراء ، على توالى الأجيال فى كل بيئة ومجتمع أن فى صلاح الفرد صلاحا للمجتمع كله ، ولن ترى مجتمعا يتوثب فى مراقى الحضارة المتطورة الصاعدة ، والتقدمية الاجتماعية إلا إذا كانت نقطة التوثب الأولى بادئة من الفرد ، ومنطلقة من بيئته الخاصة ، وظروفه المتصلة به عابرة هذا « الدهليز » الضيق إلى تلك الميادين الفسيحة التي تزخر بتجارب الحياة ، ومحاولاتها فى سبيل إرساء قواعد الحضارة الاجتماعية المنشودة على أرض صلبة لا يتزعزع فوقها البناء الكامل الشامخ للمجتمع ...

ومن الواضح أننا فى غير حاجة إلى التذكير بأن هناك فريقا من الباحثين يعتبرون أن بداية الإصلاح للفرد تتصل بالمجتمع الذى يعدونه الأساس الجوهرى لصلاح الأفراد . وهم بذلك ينسون الحقيقة الأولية الهامة وهي أن المجتمع كله بجميع مقوماته ما هو إلا صورة متكررة للأفراد ، وهم فضلا عن ذلك يتجاهلون الظروف التاريخية لكل شعب ، تلك الظروف التى تحدد

له نظامه ، وطريقة تفكيره ، وتخط له فى أرض ـ التطور إلى الغايات المرجوة خطا لا يتعداه ، ولا يستطيع أن يتعداه لو حاول هذا؛ لأنه لن يصل إلى غاياته بعد أن فقد المصباح الذى يهديه السبيل . .

ومن هنا نبع إيمان القادة ، ومن يتصدون للأخذ بزمام الشعب نحو المثل العليا والفضائل الإنسانية . . من هنا نبع إيمانهم بالفرد كقوة أصيلة لا بد من وضعها فى الحساب عند التفكير فى كل إصلاح اجتماعى ، والحقيقة التى يؤكدها الواقع المشهود أن الإنسانية لم تتطور من العهد الحجرى إلى العصر الذرى إلا بقوة الفرد وطموحه وقدرته على أن يبتكر الوسائل التى تخطط التطور وتدفع إليه ، والطبيعى أن كل فرد يختلف عن الآخر فى قدرته العقلية والجسمية معا ، وأن كل مجتمع يظهر به أفراد ممتازون يمتلكون أزمته ويوجهونه ، ويرسمون له الطريق إلى المستقبل . . ولهذا فإن دعوى الذين يقولون بأن المجتمع ـ لا الفرد ـ هو بداية الإصلاح دعوى ظاهرة البطلان وتناقض الواقع ، وتعتمد على أسس واهية؛ لأن الهدف الأخير حتى عند هؤلاء هو سعادة الفرد ...

وليس إيماننا بالفرد منشؤه عدم إدراك ما يتطلبه المجتمع

من وسائل التطور التى لابد منها لتطوره فى سبيل الخير العام للإنسانية ، فنحن بفلسفتنا هذه نخلق جميع الوسائل الصحيحة للتطور المطلوبة للمجتمع ، ونحن نخلقها فى مكانها الذى لا يوجد مكان سواه وهو الفرد الإنسانى ، الفرد الذى لا يؤمن به الآخرون إلا على أنه ترس فى آلة أو حجر فى بناء ، وهذه النظرة للفرد تهبط بالقيم الإنسانية إلى درك مشين ، بل هى تسلب من نفسه بطولته ، وحريته ، وتطوق حياته بقيد حديدى شديد القسوة تربطها به إلى واقع مرير لا أمل فيه ولا رجاء ولا غاية بعده ولا عزاء ، وماهو المقصود من ذلك أهو العدل ..؟ كلا .. فإن العدل الحقيقى لا يمكن أن يحرم الفرد من حقه الطبيعى وهو الحق الذى منحته إياه أجيال طويلة من الكفاح والأهوال .. إن العدل الحقيقى ليس مناقضا للكرامة الإنسانية ولحق الفرد فى التعبير والتفكير والحرية .. إن العدل الحقيقى لا ينكر القدرة الطبيعية لكل فرد ، ولا يفتات على حقه فى أن يعيش ... وأن يشعر بالحرية الكاملة فى بناء حياته على ما يريد الآخرون .. وهو يعلم أن حريته لن تناقض حرية المجتمع لأنها أساسها ومظهرها ، وأن بناء حياته على ما يريد لن يمنع غيره أن يبنى حياته كما يريد ، وليس هناك ما يوحى

بأن تضارب العواطف والمصالح قد يضر بالآخرين لأن النظام الذى فرضه أفراد المجتمع عليهم سيوجد التناسق والتكامل والترابط الذى لابد منه للوصول بالمجتمع إلى الهدف الأسمى. إذن فالنقطة التى يجب ان يبدأ منها المصلحون هى الفرد. وصلاح الفرد إنما يأتى بعد دراسة وافية لكل الأفراد بحيث تميز بين الأفكار المشتركة والنوازع المتشابهة والعلل العارضة والأصيلة؛ ليمكن بعدها أن يخلق القادة فى كل فرد تفكيرا مشتركا واتجاها واحدا لهدف واحد ترصد له كل الجهود، وتعبأ له كل الإمكانيات...

وهذه الدراسة وإن اختلفت فيها الآراء وتصارعت الأفكار، فهى تقربنا إلى الحقيقة التى نتوخى الوصول إليها عن طريق عرضنا لآرائنا التى نستمد كلماتها من قاموس حياتنا، وتاريخنا ومبادئنا، وعن طريق الصراع الفكرى الذى يدور بيننا، وبين من يخالفونا فى الرأى، ويعارضونا فى الاتجاه.

وإن خلاصة ما نذهب إليه فى هذا الموضوع هو أن بداية الإصلاح يجب أن تكون من الفرد، لأن الفرد له ذاتيته التى يجب أن نعمل على بقائها وإبرازها، وتنمية ما فيها من طاقات ومواهب، وأن المصلحين على اختلاف نظراتهم يجب

أن يتوجهوا إلى إصلاح الفرد؛لأن في إصلاحه إصلاحا للمجتمع كله .

ولن يتعارض ذلك مع الدعوة إلى خلق مجتمع يتجه اتجاها واحدا في التفكير والسلوك، فليس توجيه أفراد المجتمع على اختلافهم وجهة واحدة في التفكير قاضياً على ذاتية الفرد وجعل الأفراد صورا متكررة ؛ لأننا نضع في حسابنا تباين الأفراد في الطاقة والموهبة ، كما نضع في حسابنا أن وجود المجتمع الصالح يتطلب ألا يصل التناقض بين أفراده إلى حد التنافر الذي يضع العراقيل في طريق التطور المنشود .

وإن المجتمع لا يمكن أن يتجه اتجاها إيجابيا يدفع إلى العمل والإنتاج وإلى التعاون والسمو النفسي والخلقي إلا إذا تهيأت لكل فرد فرص الحرية والحياة كما يريد ، ووجد بين يديه الإمكانيات التي توجد التناسق بينه وبين غيره من الأفراد .

ذلك لأننا ذقنا من تضارب الأفكار وتنافر الأخلاق والطباع ، ما قعد بنا عن النهوض عشرات السنين ، وكان هذا التنافر سببا في تعطيل مشروعات الدولة ، أيام أن كان كل حزب يحاول الانتقاص من كل مشروع لا يكون وليد سياسته ، وأيام أن كانت الصحف تخرج إلى الناس في اليوم الواحد بعضها يحبذ

أمرا ، وبعضها ينفر منه ، والشعب بين ذلك فى دوامة لا يدرى لها نهاية!! وأيام أن كان الطلبة والعمال يخرجون زرافات هاتفين صاخبين فى مظاهراتهم يعطلون المواصلات ويقذفون المعاهد والمصانع بالطوب والحجارة ، وما ذلك إلا تعقيد فى نفوسهم نتيجة لإحساسهم بأنهم يعيشون فى بيئة ليس فيها توافق!!

فنحن لا نريد أن نعود إلى ما كنا عليه ، ويجب أن ننزع من كل فرد فينا هذه الجذور التى تأصلت فيه حتى نستطيع أن نهيء أنفسنا للمبادىء الجديدة التى تتجاوب معنا وتلمس شعورنا وأرواحنا ، وتنبع من تاريخنا ، وتتصل بماضينا ، ونرجو أن يهيأ لكل فرد فى ظلالها حياة فيها رفاهية من العيش ، وفيها عزة وكرامة للنفس ، وليس فى ذلك سلب لذاتية الفرد ، وليس فيه طبع للأفراد على صورة واحدة فى الحجم أو الشكل ؛ لأن التربية الروحية التى ننادى بها ، والمبادىء الدينية التى نعتنقها ، تنادى برفع القيم النفسية ، ومراعاة الحرية الشخصية ، بخلاف تلك المذاهب التى تسلب حرية الفرد، وتهدم جميع القيم الخلقية، وتنكر الغاية من الحياة ، وتفرض السيطرة على كافة الناس بالقمع والتنكيل والتضليل ، وتقبض بدكتاتوريتها الشديدة على كل من ينطق أو يكتب

أو حتى يشير ، بل إنها لتفرض على التفكير حصارا يبطش بطشا شديدا بكل من يحاول أن يخرج عن حدوده .

أما المبادئ التى تنادى بها ، والتى نريد أن تتوفر لمجتمعنا الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ، فهى مبادئ تقوم على التسامى بالنفس والخلق ، وتدعو إلى بذل الجهود ومضاعفة الإنتاج ، وتوفير الحياة الحرة الكريمة لكل فرد بما تهيئه له الدولة من إمكانيات ، هذه مبادئ جديدة على مجتمعنا الذى نالت منه الانتهازية والرجعية واستغله الإقطاع والاستعمار ، فلابد من تهيئة كل فرد لهذه المبادئ الجديدة التى نعلم تمام العلم أنها خاضعة لسنة التطور ، وللتجارب وللملابسات الاستكشافات الجديدة فى العلم وفى قوانين الحياة .

وإننا إذا كنا ندعوا فيما يأتى من وسائل الإصلاح إلى اتخاذ شارات من الزهور أو من المأكولات ، فلسنا نعنى بذلك أن نقلد الآخرين ، وإنما نعنى توحيداً للقوى الإنسانية ، وتوجيهها للأفكار بأقرب الوسائل إلى الروح الديمقراطية وأشدها لصوقاً بهـا وهى الإقناع والحسنى ، وما مثل ذلك إلا مثل الأعلام والشارات التى تتخذها الدول لتوجيه أبنائها إليهـا ، وفى حياتنا العادية نجد كل مدرسة تتخذ لها زيا خاصاً بأبنائها ،

أو شارة ترمز إليها ، أو نشيداً ينشده التلاميذ فيها ، كما أن كل مصنع يتخذ لعماله زيا خاصاً ، وشارة تدل عليه ، ولسنا نرى فى ذلك إلا توجيهاً من المدرسة إلى الطابع الخاص بها وتوجيهاً من المصنع إلى العمل الذى يقوم به والجهد الذى يبذل لتنمية هذا العمل ، وما نظن أحداً يتصور أن ذلك مدعاة لصنع التلاميذ فى قالب متكرر ، أو فى جعل العمال آلة لا تتغير ولا تتبدل .

ولو ساغ لنا أن نفهم ذلك لساغ لنا أن نقول بغلق المدرسة وإبطال المصنع، لأن كلا منهما يصنع قوالب تهبط بالفرد ، وتنافى إصلاحه كما تنافى إصلاح المجتمع .

إن فلسفتنا تقوم على أن إدراك الدولة لغايتها هو الذى ييسر لها أن تضع لأفرادها النظم التى توسع أمامهم مجال العمل ، وتجعلهم يقبلون على مشروعات الدولة محتفين بها باذلين الجهد لإقامتها ، حتى تتوفر لهم سبل الحياة فى كل قطاعاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لأن الأهداف التى ترسمها الدولة لنفسها ، لا يمكن أن تبرز إلى حيز الوجود إلا إذا آمن كل فرد بها وبنفسه إيماناً عميقاً ، فمعنى إصلاح الفرد هنا أن يفهم ما يجب عليه ، وما يحق له ، فيؤدى الأول ، ويأخذ الثانى ، ومعناه أن يرسم لنفسه الطريق ، الذى يسير فيه مع غيره حتى يتوجه

الجميع إلى السير فى هذا الطريق دون تهيب ولا تعثر ، وليس معناه أن نتركه بلا عمل ولا دخل ولا إيراد ، وإنما معناه أننا إذا قومنا فيه اعوجاجه استطاع هذا التقويم أن يضعه فى ركب الحياة الصحيحة ، ويبصره بالطريق السوى ، فلا يسير على غير هدى ، ولا يقف أمام العقبات مكتوف اليدين .

إن الثورة تهدف إلى استغلال كل الطاقات ، طاقات الفرد النفسية والفكرية والجسمية .

كما تهدف إلى استغلال طاقاتها الكامنة فى أرضها وجوها ومياهها ، ولم يمكنها ذلك إلا إذا كونت أفرادها تكويناً يهيىء لكل منهم أن يسهم بدوره فى إبراز هذه الطاقات ، فليس من المعقول أن تنشىء الدولة مصنعاً دون أن تفكر أولا فى ميزانيتها وفى ميزانية هذا المصنع ، ثم تبنيه فى المكان الملائم ، وتوجد له المهندسين الذين يقومون عليه ، وتدرب العمال الذين يشتغلون به ، وإلا فكيف يكون حالنا لو أقمنا المصنع وحشدنا العمال أمام الآلات ؟ ، أيجوز فى أذهاننا أن ينطبع العامل مع الآلة ؟ وهل يشعر بأن الدولة قدمت له الأجر الذى يؤسس به البيت ، ويربى منه الأولاد ، وإذا جاز هذا فهل يكون راضياً عن شعوره ؟ وهل يهنأ بهذا الأجر ؟ وهل يرضى أحداً أن

تتصرف الدولة على هذا النحو الذى إن دل على شئ فإنما يدل على أنها لا تدرك الواجب عليها إدراكا عامياً ، ومن كانت هكذا فإنها لا يمكن أن تعيش ...

إن الدولة تسير لتخلق للجيل الحاضر مقوماته المادية والمعنوية ، ولتنزع من نفسه الرواسب الضاربة فى أعماقه ، وهى فى الوقت نفسه تعمل لخلق جيل جديد متحرر من هذه الرواسب .

إننا نريد أجيالا صاعدة خلاقة تبنى ولا تهدم ، تصون ولا تبدد ، تعادى من يعاديها وتسالم من يسالمها ، أجيالا ليس فيها انتهازيون ولا مستغلون ، ولا عملاء .

ومن حسن الحظ فى عصرنا هذا أن فهم قادة الثورة هذه الحقيقة وآمنوا بها ، وخلقوا منها فلسفة خاصة تشتبك بتاريخنا وتقاليدنا وتنبع من ظروفنا وبيئتنا ، ولا تفصلنا عن ماضينا العريق ، ولا تبعدنا عن تراثنا الخالد الذى ننظر إليه دائماً نظرة تقديس وإكبار . . وهى فلسفة أقل ما يقال فيها إنها توشك ، أو هى قد خلقت فى نفس الشعب شعوراً واحداً وتفكيراً واحداً واتجاهاً واحداً إلى هدف واحد . . .

هذه الفلسفة هى الاشتراكية التعاونية الديمقراطية التى

يقتضينا الإيمان بها أن نتفقد حالنا لنعرف مواضع النقص ، ونخط طرق الإصلاح على أسس قويمة .

ويلزمنا قبل هذه المعرفة وعند ذلك التخطيط أن نقف على العلاقات الجديدة التى هى من لوازم هذه الفلسفة ، وهى علاقات يكفى فى إبراز تعقيدها أنها جديدة وأنها مع هذا متصلة بماضينا وتاريخنا . . وتتضح معالمها عندما نوازن بينها وبين غيرها من المذاهب القائمة .

المذاهب السياسية وأثرها فى العلاقات الإنسانية

والحقيقة أن مظاهر العلاقات تختلف بين الإنسان والإنسان، كما تختلف بينه وبين الكائنات من حوله، وتتنوع هذه الصلات فتأخذ مظاهر الحب أو الكره أو الشجاعة أو العطف أو الشك أو الخوف . . . . وقد تكون خاضعة لظروف تاريخية وأحداث هامة، فتأخذ مظهر القانون أو مظهر العرف أو مظهر الإرهاب . . . . . وقد تكون لها بواعث متشابهة أو متقاربة فى الأفكار والسلوك، وقد يكون لها دواع من المصلحة التى تدعو إلى التفكير فيها، أو الشعور بأنها مصدر الرزق أو العمل أو الحرفة . . . الخ .

ولكن هذه العلاقات مهما اختلفت فى عللها وأسبابها لا بد لها من أسس نفسية تقوم عليها، وهذه الأسس النفسية هى التى توجهها وجهة إيجابية خيرة أو تنحرف بها إلى القلق والاستهانة والضعف والتشاؤم والحقد . . . . ولا شك أن هذه الأسس إذا اتجهت هذا الاتجاه الأخير قضت على طموح الأفراد، وأفقدتهم قسوة التمييز، والتبس عليهم الحق بالباطل .

وهذه العلاقات التى نتحدث عنها تختلف فى المجتمعات باختلاف نظمها الاقتصادية : فالمجتمع الرأسمالى تحكمه فئة معينة ممن يحتكرون رأس المال ويمتلكون جميع وسائل الإنتاج ، ويستغلون الطبقات العاملة من أجل ثرائهم وتنمية أرباحهم، ثم يبحثون عن أسواق لتصريف منتجاتهم أو للحصول على المواد الخام ، فيتجهون إلى فرض سيطرتهم على الشعوب المتخلفة لتحقيق مطامعهم الاحتكارية .

فى مثل هذا المجتمع نجد العلاقات النفسية تسيطر عليها قوانين الأثرة والفردية وتتملك «المكيافيلية» نفوسهم فى النواحى السياسية والاقتصادية ، وهذه الغاية تبرر كل وسيلة يتخذونها سواء أكان لها أساس من العرف الدولى أم لا، وسواء أكان لها نصيب من معانى الإنسانية أم لا .....

والمجتمع الشيوعى تقوم على السلطة فيه طبقة معينة تفرض حكمها على الآخرين قسرا واقتدارا ، وتدين هذه السلطة بأن لكل فرد دورا معينا لا بد أن يؤديه رضى أم كره ، وليس له من الرغبات إلا ما شاءت الطبقة الحاكمة .

ومثل هذا المجتمع تكون العلاقات النفسية والإنسانية فيه مغايرة لجميع المجتمعات الأخرى ، وتأخذ مظاهر يكون

اساسها النفسى الخوف والحقد والشك ... فعلاقة العامل بمدير المصنع علاقة الخوف منه ومن مصيره ، وعلاقته بالدولة تقوم على أساس الحقد الملتهب على الذين سلبوه حريته ، وعلاقة الفرد بأسرته قد خمدت فيها العاطفة ، وخبا بريق الأمل ......

أما العلاقات النفسية فى المجتمع الاشتراكى التعاونى - فهى وإن كانت لم تستقر بعد؛ نظرا لأن النظام ما يزال فى دور التكوين ، إلا أنه نظام قام على أثر ثورة أطاحت بالإقطاع والرجعية ، وخلصت البلاد من الاستعمار ، وأقامت حكما جمهوريا سليما ، وغيرت كثيرا من الأفكار ، وأيقظت فينا ماضينا ، وعملت بكل ما وسعها العمل حتى هيأت لنا مستقبلا مرموقا .

لهذا كله تبلورت العلاقات النفسية فيه ، واتجهت نحو الحماس والثقة والطموح والقدرة على تحمل الأعباء ، واستهدف كل فرد غاية واحدة مشتركة هى الوصول إلى العدالة المطلقة عدالة اجتماعية وعدالة اقتصادية وعدالة سياسية .

وكان لابد لهذه العلاقات أن تختط لها طريقا خاصا بها وأن تبزغ شمسها على الأسرة والمدرسة والمصنع والجهاز الحكومى ، وسائر نواحى النشاط فى الدولة .

وذلك لتشيع فى الأسرة المودة والمحبة ، فيعمل الأب

على أن يعطى من نفسه لأولاده وزوجته ، وتعمل الزوجة على إشاعة الحياة الهنيئة ، ويقبل الأولاد على اداء واجبهم متعاونين فيما ينهض بمجتمعهم الصغير اجتماعيا واقتصاديا .

وتنتقل هذه العلاقة بدورها إلى المدرسة ، بحيث لا يشعر التلميذ بالفارق الكبير بين مجتمعه المدرسى ومجتمعه المنزلى ، وحيث تعمل المدرسة مع المنزل على تكوين فرد يصلح لنفسه ولأسرته ووطنه ، ثم يخرج من هذا المجتمع إلى المصنع او الحقل أو التجارة أو النادى ، وقد استلت من نفسه عوامل الأنانية ووجد الحياة تفتح له ذراعيها ، فيها عمل يتفق وطبيعته ، ويتلاءم وثقافته ، ويجازى على عمله أجره ، ويجد أفرادا يستهدفون معه ما يستهدف من قوة البناء .

ولما كان مجتمعنا قد تعاونت عليه العلل الكثيرة ، وتركت فيه مشكلات مختلفة بعضها اقتصادى كالفقر والتعطل ، وبعضها اجتماعى كاختلاف الثقافات ومشكلات الأمية ومشكلات أسرية كالطلاق وتعدد الزوجات ومشكلات فى تكوين المجتمع نفسه كتزايد السكان وضيق الموارد وإمكانيات الدولة المحدودة ، وتوجيه الاستثمار نحو زيادة الإنتاج .

ولما كانت هذه المشكلات كلها مترابطة متداخلة كان لا بد

من بحثها بحثا جذريا فى منابتها الأصلية وفى قطاعاتها المختلفة ، وكان لابد من وضع نظام يصلح لهذه المهمة ، نظام يستطيع ان يبحث هذه المشكلات ، ويضع لها الحلول المناسبة ، ويعمل على إيجاد التناسق بين القطاعات المختلفة ، ويربط الفروع بالأصول والأسباب بالمسببات ، ويجعلنا نحافظ على ما كسبناه فى حياتنا الجديدة ، ويدعم جبهتنا الداخلية بتعريف الفرد بحقوقه وواجباته ، وتدعيم جبهتنا عن طريق التعاون والقضاء على الاستغلال بكل صورة ، ويدفع هذه الجبهات ويطورها ويوجد التناسق بينها ، فيقبل الزراع على الإنتاج ، وتسود العلاقات النفسية الخيرة بين العامل وصاحب العمل ، وتنتظم علاقة التاجر بغيره والمنتج بالمستهلك وهكذا كل ذى حرفة بغيره .

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

الصراع الطبقى

عاش مجتمعنا حينا من الدهر ، تتميز فيه الطبقات ، وتبدو فيه الفوارق ، وتفرض عليه الحواجز الاجتماعية ، وصار لكل طبقة منهاج خاص تتسم به حياتنا فى المسكن والملبس ، وفى المزرعة والمصنع ، وفى العادات والتقاليد ، ووصل الفصل بين الطبقات حدا واضحا فى القرى والمدن وفى الشوارع والمقاهى ، وفى وسائل المواصلات ، وفى مصالح الحكومة ودواوينها ، وكان القائمون على حماية القوانين وتنفيذها يجنحون إلى حماية هذا التفاوت ، ويضعون فى حسابهم دائما اختلاف المعاملة بين كل فرد وآخر حسب وضعه الطبقى ، ويسلكون بالنسبة لهذه الغاية مختلف الوسائل ، فالتنمية الزراعية لا تقوم إلا على أساس خدمة الملاك والإقطاعيين ، وتنظيم وسائل الرى والصرف لا يكون إلا حيث تقع أراضى الإقطاع ، وإنشاء الطرق لا يتم إلا إذا أدى خدمات لأصحاب العزب والضياع ، والتجارة لا تكون إلا بأيدى أصحاب الأموال ، وحماية النفس والمال لا تكون إلا لهؤلاء ، وهم وحدهم الذين تفتح لهم الأبواب ، وأبناؤهم هم الذين يحظون بدخول المدارس ،

وتيسر لهم سبل التعليم ، وتوضع المناهج وتؤلف الكتب لخدمة هذه الطبقة وحدها دون غيرها من الطبقات ، وسدت جميع المنافذ فى وجوه الغرباء عن هذه الطبقة ، وأحيطت قطاعات الحياة بسياج لا يمكن أن يتخطاه إلا ذوو المال ، ولم تعد التربية ولا خطط الحياة تقوم على أساس احتياجات المجتمع ، بل على أساس احتياج هذه الطبقة ، وغدا الآخرون آلات تصنع لتنتج كل ما تحتاج إليه طبقة معينة ، دون أن يكلف أفراد هذه الطبقة الخاصة أنفسهم عناء ولا جهدا اللهم إلا طلب اللذات والاستمتاع بالفراغ الذى يعيشون فيه .

ونشأ عن هذا التفاوت اختلاف المعايير والقيم ، واختلاف وجهات النظر نحو الأشياء ، وأصبحت العلاقات الفكرية محدودة بالحدود الطبقية ، والعلاقات النفسية يسودها التناقض ، ويربطها الحقد والضغينة والرياء ؛ بسبب الشعور بالفوارق الاجتماعية والإحساس بالعزلة الروحية والفكرية ، والإدراك العميق بأن قوى التشريع والتنفيذ تساند هذه الفوارق وتنميها .

ومن هنا رزح المجتمع تحت نير الصراع الطبقى ، واحتلت هذه الأوضاع مكان الأسى فى النفوس ،واستقرت العداوة نحو القائمين على الأمر والخوف منهم ، وتجلى ذلك فى نفوس الأفراد

نحو هذه الطبقةالتى تتمتع بكل امتياز ، وتسخر من كل جهد ، وتعيش فى رفاهية على حساب غالبية الشعب الذى يئن تحت سيطرة غاشمة ، ويرزح تحت عبء ثقيل من الجهل والفقر والمرض . كما بدا الإحساس بالخوف والعداوة نحو القائمين على أمر الإدارة فى القرية والمركز والمديرية والديوان وفى المدرسة والمصنع . . . ووصلت هـذه العداوة أحياناً إلى حد التمرد والعصيان،ولم يكن يقابل هذا التمرد بالبحث عن أسبابه ، والعمل على تفاديه ، ، بوصف العلاج النافع ، ورسم الخط المستقيم لسير الحياة ، وإنما كان يقابل من الطبقة العليا بفرض النفوذ والدكتاتورية المطلقة ، وتدبير المؤامرات والمكائد للإيقاع بمن تسول له نفسه الخروج على المألوف ، أوحتى مجرد إظهار التبرم أو السخط مما هو واقع ، وتتخذ هذه الطبقة من أجهزتها الكثيرة أداة للسيطرة وتنفيذ الأغراض والاستغلال ، وتتفنن فى وسائل التنكيل والتعذيب بما يكفل لهـا دوام سلطاتها ، دون أى تقدير للعوامل والظروف التى تسير المجتمع ،ودون أى مراعاة بل دون أى معرفة لقوانين التطور التى تدفع المجتمع مهما وضع أمامه من عراقيل . .

ولكن هذه الأساليب مع تنوعها وكثرتها لم تستطع أن

تمنع التغيرات التى تحدث فى المجتمع نتيجة عوامل التطور الطبيعى. فقد أخذت هذه العوامل تتلاقى و تتجمع و تأخذ مجراها لتحدث التغير الجذرى لنظام المجتمع ، وانتهى كل ذلك إلى الثورة الكبرى التى أطاحت بكل المعوقات ، وشرعت فى بناء المجتمع الجديد على أساس جديد .

وقد وجدت الثورة مجتمعا طال عليه الظلم والطغيان ، وأرغمته ظروفه القاسية التى عاش فيها على أن تكون علاقات أفراده بعضهم ببعض قائمة على غير أسس إنسانية ، وبخاصة وأن وضعه الاقتصادى يدفعه دفعا إلى ذلك ، وأن كثيرا من العادات السيئة إن هى إلا مظاهر لسلوكه الذى كان نتيجة حتمية لهذه الحياة السيئة فكان طبيعيا وضروريا والثورة تبنى ، أن تضع أسسا سليمة تكفل تغيير طرق التفكير ، وتقيم العلاقات النفسية على أسس طيبة ، وتجعل الروابط الإنسانية تحمل طابع المحبة والتعاون والألفة والثقة ، ولن يتأتى ذلك إلا بالتقريب بين الطبقات ؛ لتخف حدة الصراع القائم بينها ، فيزداد ، الإنتاج مما يترتب عليه زيادة الدخل ورفع مستوى الحياة والشعور بالمسئولية والمشاركة فى العمل وتحطيم الحواجز التى تحول بيننا و بين دوافع التطور ومقتضيات العدالة ،حتى نقضى على المشاكل التى توارثناها.

والسبيل التى لا سبيل غيرها إلى تحقيق هـذه الغاية هى الاشتراكية التعاونية الديمقراطية ؛ لأنها الوسيلة الطبيعية التى تتفق مع حياتنا ومقوماتنا ، وتشخص أدواءنا وتضع لها العلاج الناجع ، وآية ذلك أننا حين بدأنا نسير على هداها ، ارتفع حائط البناء ، وانهار جبل المشاكل ، وتحرك المجتمع ، وتغيرت الأوضاع الاقتصادية ، وتبدل كثير من النظم الاجتماعية ، وقويت الطبقات التى كان مضغوطا عليها فى العهود السابقة ، وأصبحت فرص العمل والإنتاج أمامها متوفرة ، وتبدلت مفاهيمها ، كما تبدلت علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وأخذت تتكون علاقات نفسية جديدة ، فشعر كل فرد برسالته فى الحياة وتعمق الشعور بالحرية ، واشتدت الرغبة فى تحطيم العراقيل ، وتغيرت نظم الإدارة ومفاهيمها وأفكارها ، وأدركت أن التشريعات والقوانين لا تهدف لصالح طبقة معينة ، وإنما هى تسن لصالح الأفراد جميعا ، وتقاربت وجهات النظر نحو الأمور كما تقاربت بين الأفراد وبين من يلون شئونهم .

وهذا التطور فى الأفكار والمفاهيم والعلاقات سينتج حتما مجتمعا يعيش فى أحسن ظروفه ، وتتسع فيه العلاقات الإنسانية حتى تخرج من حدودها الضيقة وتشمل المجتمع الإنسانى الكبير

الذى لا يعرف الصراع الطبقى ، ولا يحس افراده بالتفاوت ، ولا يستشعرون المهانة والمذلة ، وإنما يحيون حياة العزة والكرامة .

هذا التغيير فى العلاقات هو الذى يساعد على سرعة التطور، ويحقق الغاية من الوجود، ويخلق الإمكانيات التى تهيئ النجاح ، ويربط سلوك الأفراد بروابط وثيقة يوجهها فهم عميق لجميع التيارات الاقتصادية التى تحتم مستوى معينا فى الحياة ، وتخلق طاقة معنوية مادية ينتفع بها فى الكفاح من أجل حياة أفضل .

ومن هنا ندرك أهمية المسئولية الملقاة على عاتق كل من يشرف على عمل من الأعمال ، وندرك معنى أن كل إنسان مسئول ، فمسئولية المربى فى البيت ، وفى المدرسة ، والمشرف فى المصنع ، وفى الديوان ، والقائم على أى شأن من شئون الحياة ينبغى أن يكون عالما بحقيقة مهمته قدوة فى سلوكه ، تجمعه بمعاونيه علاقات قائمة على الفهم والعطف ، كما ينبغى أن يكون لبقا فى معالجة الأخطاء ، وأن يعطى لكل ما يقدر على أدائه ، وأن يشركهم فى حل المشاكل ، وألا يتطرف فى رأى أو خصومة ، وأن يكون الإقناع وسيلته لجذب المعارضين ،

وان تنبع تصرفاته عن روح ديمقراطية ، وأن يحترم الجميع بغض النظر عن الدرجة والمستوى ، كما ينبغى أن يكون حازما فلا يتهاون بلا سبب ، وأن يكون نزيهاً فى تصرفاته إلى غير ذلك من الصفات التى تهيء العلاقات الطيبة وتوجد التوافق والانسجام فيرتبط الجميع برباط المحبة والتعاون والمشاركة .

الطريق

وهذه الصفات التي يجب ان يتصف بها قادة الجماعات ومعاهوها في قلب المجتمع من خير الوسائل التي تجنبها ويلات الصراع الطبقي العنيف الذي لا فائدة منه ، ولا غاية وراءه ، والذي يثيره من لا يستمدون فلسفة قيادة الأمم وتوجيهها من منابعها البعيدة العميقة ، والواقع أن الفرد في حد ذاته غاية للكون ؛ لأنه الصورة الأخيرة للتطور الأزلي للوجود ، وهو في الوقت نفسه متصل اتصالا وثيقاً بجميع الحقائق فيه وجميع القوى المحركة له ، والتي تخضع في النهاية لقوة غير محدودة لا في الزمان ولا في المكان ، ولم تأت أهمية الفرد من هذه الناحية فحسب بل من أن فيه تنطوي جميع حقائق الوجود ، وتكمن بذرة التطور الأزلي . . . وهذا سر من الأسرار الإلهية الكبرى التي منحت الإنسان قوته الخارقة في إدراك قوانين الطبيعة والسيطرة عليها ، وهو لا يدركها حق الإدراك بقوة عقله ولكن بقوة روحه الكاشفة والمبصرة لحدودها الأبدية في العالم اللانهائي . . . ومن الواضح أن جميع المجتمعات الإنسانية لو عرفت هذا ، وسلكت طريقاً واحداً

فى تربية أفرادها بهذه القيم الروحية لأمكن فى النهاية أن تجد الإنسانية نفسها فى الوضع الذى أخذت تحلم به فى الأجيال الطويلة ، ولم تصل إليه ... وهى لم تصل إليه إلا لأن التنافر فى طريقة الفهم والتفكير ، سبب لها عدة مشاكل معقدة صرفتها عن الطريق السليم ، وجعلت من حقائق الروح أوهاما، ورسمت لها المادة نظاما . . .

إن الطبيعة ترسم لنا الطريق التى نخلقها لأنفسنا ، ونرتضيها لحياتنا ، وكل نظام يختطه الفرد فى حياته يكون له أثره القوى فى حياة الآخرين ، ولا شك أننا كلما تعمقنا مبادئ الخير ، هيأنا للحياة أن ترسم لنا طريقاً سوياً ممهدا نسير فيه ، ويسير فيه المجموع إلى حيث يجد السعادة النفسية والحياة المادية الآمنة .

إن فى الحياة تناسقاً وتكاملا ، يدفعان كل فرد إلى الانسجام مع غيره ، حتى تنتظم الإنسانية فى وحدة شاملة تامة هى الوحدة الكبرى التى جاءت بها الأديان والتى دعا إليها الرسل ، وعمل من أجلها المصلحون ، وقادة الفكر فى العالم أجمع .

وإن نظرة إلى الطبيعة فى حركتها ، وإلى العالم فى وجوده لتدل دلالة واضحة على هذا ، ها هى ذى دوائر الفصول تتعاقب ،

ففى الشتاء تجف الأوراق ، وتتساقط الأزهار وكان ما على الأرض قد أصابه الموت ، ثم ينقضى ، فتستيقظ الروح ، وتسرى الحياة ، ويقبل الربيع فصل الأمل ، ووريد الحياة ، يبشرنا بالحصول على خيرات الأرض ، وتسطع الشمس ، وتتفتح الأزهار ، وتنضج الفاكهة ، ثم يقبل الخريف محققاً أمل الربيع ، ثم نبدأ من جديد لنلقى الشتاء وهكذا دواليك ، وها هو ذا الليل يعقب النهار فى نظام لا يتخلف ولا يصيبه الخلل ، والمادة الأولى أو الخلية الحية ، وما فيها من حركة تدل دلالة كبرى على ما تسير فيه الحياة من توافق ، وقانون الجاذبية وغيره من سائر القوانين الكونية كلها تنشد التوافق والتكامل .

فيجب على كل فرد فينا أن يعمل لينسجم مع هذا الكون ، وأن يكون إيجابياً مع نفسه ومع غيره ، حتى يؤدى دوره فى الكون ، وحتى يكون عضواً نافعاً فى الحياة .

الفرد قوة فى ذاته ، قوة يخلق ويبدع إذا أحسن التفكير ، ورسم لنفسه الطريق الصالح الذى يؤدى إلى الغاية التى يبتغيها ، وفى الحياة قوى خفية منها الحسن ومنها السيء ، فإذا تذرع بالثقة والإيمان والاطمئنان وصل إلى بغيته التى قد يلاقى فى سبيلها صعابا ، ولكن هذه الصعاب هى دائماً مفتاح الحياة ، وهى التى

تدفع إلى العمل ، والعمل يوحى بالثقة ، إن كل عقبة تقرب من الغاية ، وليس هناك عمل دون فائدة ولا مجهود دون غاية .

فأول ما يجب أن نبدأ به هو تنقية نفوسنا من الرذائل ، وتوجيه أفكارنا توجيهاً صالحاً للحياة الحرة الكريمة ، ولن يتأتى ذلك إلا إذا اتبعنا طريقة صحية تبعدنا عن الأمراض ، وتهيئ لأجسادنا أن تنقاد لأفكارنا ، وأن ندرب نفوسنا تدريباً يقوى فيها الإرادة والهدوء وقوة التمييز .

يجب أن يخلو كل فرد منا إلى نفسه ساعة من النهار أو من الليل يركن فيها إلى أفكاره ، ويعودها الهدوء ففى هذا الهدوء لحظات الإلهام، وانسجام الروح والأفكار على أن يتجنب الشعور بالألم، فإذا وجد أن الألم قد أخذ طريقه إليه ، فليتذرع بالصبر . وهكذا حتى يستطيع أن يسيطر على نفسه ، وإذا سيطر الإنسان على نفسه وصل إلى الحقيقة ، ورأى عوالم كانت خافية عنه ، والتقط من الإشعاع الصالح ما يدفعه إلى عمل الخير ، وما يلهمه الشعور بالترابط بين الإنسانية كلها ، وعمل كل فرد فيها لإسعاد غيره من الكائنات ، ويرى الحياة كتاباً مفتوحا يلحظ فيه الانسجام ويدرس التوافق فيؤدى به ذلك إلى معرفة الله ، بل ويراه كما ترينا قطع المرآة المكسرة المبعثرة شمساً واحدة ، وسيدرك

إدراكاً تاماً أن كل ما فى الكون وحدة متشابكة تربطها جهود واحدة وغايات لا اختلاف بينها ، وتصبح غاية أمانيه وألذها مساعدة الآخرين وحبهم والتفانى فيهم ، وكلما ارتقى الإنسان فى هذا الاتجاه غمرته السعادة ، وشعر بأخوته للكائنات ، التى على الأرض بل للأفلاك التى تدور فى السماء ، وأحس بقربها منه ، وعمل جاهداً للوصول إليها ؛ لأنها ستجذبه ليرى القوة الخفية التى تديرها .

وإن أولئك العلماء والعباقرة الذين كشفوا أسرار الطبيعة ، وجعلوا منها للإنسانية خيرا ، وابتدعوا من الآلات والأدوات ما مهد سبل الرقى ، وكفل الراحة وهيأ هذه النعم الوفيرة .

هؤلاء العباقرة هم من ذلك النوع الذى خلا إلى نفسه ، وحدد طريقه ، واستطاع أن ينسجم مع الكون ، ويحور ذهنه وجسمه ؛ لتكون ذبذباته النفسية والجسدية متمشية مع القوى العليا التى تدبر الوجود وتعرف أسراره ، ولذا تكشفت هذه الأسرار فى لحظات من التجلى الروحى والذهنى فأفادوا العالم ، وطفروا بالإنسانية إلى هذه الدرجة من الكمال .

وهؤلاء الزعماء الذين يقودون أممهم نحو المجد ، ويرسمون لهم طرق الوحدة ، ما كان لهم أن يفعلوا ذلك لولا ما أتيح لهم

من هذه السبل التى شقتها لهم الطبيعة من القوة الذهنية والعبقرية الخالقة الخالدة .

فإذا أردنا أن نهيء لأمتنا وحدة حقيقية ، ومجداً يصلنا بماضينا ، فيجب أن نسعى لتحقيق أنفسنا ، وأن نعمل على إيجاد سبل الترابط بيننا فى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى نصل إلى الوحدة الشاملة التى نبتغى إليها الوسيلة .

وهذا هو لب اللباب فى ثورتنا الكبرى ، ومصدر لكل ما تريد أن تخلقه من علاقات جديدة يؤمن بها الفرد فى حدود الجماعة .

تربية الأهداف

لكى نصل إلى غايتنا التى نبتغى إليها الوسيلة ، يجب ان نحدد أهدافنا ، والوسائل إليها ، وأن نضع نصب أعيننا الغاية التى نبتغيها ، وطريقها المرسوم .

ولا شك أن غاية كل فرد منا هى أن يصل إلى المثل الأعلى الذى حدده ... وتحديد هذا المثل يجب أن يكون مرتبطا بالعمل الذى يعمله ، متصلا بالأمل الذى يرجو تحقيقه . فالمثل الأعلى لرجل الدين غير المثل الأعلى لرجل الطب ، ومثل الفلاح غير مثل التاجر والصانع والعامل والطالب ... الخ .

فكيف إذن يمكن لكل فرد أن يختار مثله الأعلى ، وأن يرسم طريقه إليه ؟ وكيف يمكن لكل مجتمع أن يصل إلى غايته ؟

إن تربية الأهداف تكون بمعرفة الطاقة النفسية والمادية للفرد والمجتمع ، والخبرة ... بالقوانين الطبيعية للحياة ، وكيفية تطور الفرد والمجتمع ، والعناية بتربية العقل والقلب معاً ؛ لأن تهذيب أحدهما لا يتم إلا بتهذيب الآخر ، فكلاهما مرتبط بصاحبه مؤثر فيه ، وليست تقوية أحدهما بكافية لتقوية الآخر ،

فقد يكون اختصاص أحدهما بالتقوية ذا أثر فى إضعاف الآخر ، ولهذا يلزم الموازنة بينهما فى طريق التربية .

إن أول واجبات الدولة هو تعليم الفرد ، وهى لاتحمل هذا الواجب الخطير إلا للوصول إلى هذه الغاية ؛ لتحقق بها السعادة المنشودة للجميع ، وهى الغاية الكبرى والهدف الأخير لكل فلسفة يعتنقها أبناء المجتمع الواحد ...

فعلى الفرد أن يساعد الدولة ليمكنها من تطبيق القوانين العامة اللازمة للتطور المطلوب ، ومن منحه الخبرة الكافية للسير فى الطريق المرسوم ، فعليه — وهذا واجبه وحده — ألا يضيق بالألم لأنه مفتاح المعرفة ، ومعلم النفس ، ومانحها الصبر والطمأنينة واليقظة الروحية لكل حركة فى الوجود ... كما أن عليه أن يضع خطة لسلوكه الفكرى والنفسى خلال حوادث الحياة ... خطة أساسها هو الشعور الكامل بالقوة المحركة للحياة والكون فى تناسق واتزان ... والإيمان الحقيقى بأن غايته هو جزء من غايتها العليا ... وبذلك تصدر عنه الأفعال والأقوال ذات لون حى ، مؤثر ، ملىء بالحيوية والحركة مرتبط بجميع قوانين الحياة والكون برباط متين لاتفصمه المادية مهما عظمت قوتها... ومن الواضح أن الفرد فى هذه الحالة ، سيحس إحساساً عميقاً

بأنه شيء هام فى هذا الوجود ، وان هـــذه القوة العظمى التى وصل حياته بها لا يمكن أن تتخلى عنه بعد أن فتحت أمامه جميع نوافذ الأمل ، ومهدت له جميع مسالك الحياة ...

ولسنا فى حاجة لأن ننص على أن كل فرد مكلف بأن يعمل؛ لأن العمل عبادة وكشف لقوة الإنسان ومواهبه ، وما وضعته الطبيعةفى نفسه من قدرة ، وإيمـــان ، وجهد ، والعمل إذا اقترن بالشعور الــكامل بالقوة المحركة للوجود لم ينتج إلا الخير العام ، والنعيم الشامل ، والرفاهية المنشودة... إن الدولة التى تخلق هذا الفرد الصالح تستطيع أن تضع النظام الصالح للمجتمع الراقى ... إنها بذلك تملك جميع أسباب التطور ، وتــكشف فى يسر وسهولة قوانينه العليا . . . ويمكنها بعد ذلك أن تدرس كل فرد على حدة وأن تنسق الأفــكار المتصارعة ، والمصـــالح المتضاربة ، لتوجيه المجموع وجهة واحدة لهدف واحد فى تعاون مثمر ، وعمل منتج وفــكر خلاق ... ومن الطبيعى أن يلقى هذا كله ظلاله على نظام المجتمع ، حتى ينتهى الحال به إلى أن يصبح صورة فــكرية من جميع الأفــكار المشتركة فى المجتمع ، تلك الأفــكار التى لم تخلقها الدولة ولــكنها وجهتها رغم اختلافها وتنافرها إلى هدف واحد فتلاقت فى طريق واحد آخر المطاف ...

إن الوصول إلى هذا ليس بالأمر السهل ، ولا هو بالهين بل إنه يحتاج إلى جهود شاقة وصبر طويل ، وحكمة مبصرة ، وإيمان عميق ... إنه يحتاج إلى المعرفة الكاملة، ليمكن فهم القواعد العامة اللازمة للتطور ... والقواعد العامة ليست شيئاً منفصلا عن الفرد ولا بعيدة عن المجموع — إنها فى الفرد نفسه ... فى إدراكه لحقيقته ... وحقيقة وجوده ... فى معرفته بغايته وغاية الحياة نفسها . . . فى سلوكه أقرب الطرق التى تحددها طاقته النفسية ، ومقدرته الروحية ...

إن التناسق الخفى الذى نراه فى كل شىء فينا وفى الكون يؤكد لنا أن إدراكه شىء لازم للحياة ولازم للتطور... ونحن لن ندركه هكذا بنظرة خاطفة بل بالتأمل الواعى ، والسكون المفكر ، والتغلغل فى عالم الأسرار والاتصال الحر بكل مظاهر الطبيعة الجميلة ... إن الحياة ليست عملا متصلا بالنهار وبالليل... فى المعمل والمنزل ، فى الطريق ، والروضة ، وإنه لمن الضرورى لكل فرد يريد أن يشترك فى قافلة التطور البشرى أن يهىء نفسه لذلك ، وأن يعد حياته لتكون لبنة فى بناء الإنسانية الشامخ...عليه أن يتصل بالطبيعة متأملا ، وأن يبحث عن الهدوء مفكراً ، وأن يتعمق الوجود مكتشفا ...عليه أن يلائم بين الغاية

والضرورة ، عليه ان ينقى جسمه ونفسه من شوائب المرض والرذيلة ، وأن يتعلم الخير للكل والحب للجميع .

الإيجابية والسلبية :

إن الإنسان ليس مادة فقط وإنما هو جسم يحركه هذا السر الخفي الذى لم يصل العلماء إليه وصولا يمكنهم من إخضاعه للتجارب والأبحاث، وهو ما سمته الأديان بالروح ، وهذا الروح هو العامل القوى فى دعم هذا الجسم .

ولكن ما دام الإنسان سجين جسمه فهو أقرب إلى إدراك الأشياء الملموسة منه والتأثر بها والخضوع لمقتضياتها أكثر من إدراكه وتأثره بهذه القوى غير الملموسة .

وإذاً فيجب أن يتحلل من هذه المادية ومن الوقوع تحت سيطرتها ؛ ليفسح المجال لفكره وعقله وأحاسيسه حتى تتخلص من هذا السجن لتتصل بمصدرها وباعث قوتها ، وواهب الحركة لها .

وحين يتم دعم الجسد والروح معاً يكون الفرد قد أقام من نفسه بناء شامخاً للمجتمع القوى الذى يعيش فيه ، ويكون لهذا المجتمع أركانه التى يعتمد عليها فى قطاعاته المختلفة والتى تتطلبها

قوانين الوجود ، وطبيعة الأهداف التى حددها الفرد أو حددها المجتمع ؛ لحفظ كيانه و بقائه النوعى والسير به إلى الوحـدة التى يتطلبها الوجود .

ولهذه الغاية جاءت الأديان لتقوم من الفرد اعوجاجه ، ومن النفس انحرافها ، وتتجه بها إلى القوة العليا لا لحاجة هذه القوة إلى ذلك الفرد وإنما لحاجة الفرد وحاجة الحياة نفسها إلى هذه القوة ، حتى تستمر فيها وجودها على أحسن ما تـكون عليه من الراحة النفسية والجسمية .

جاءت الأديان لتحدد للنفس ضوابطها ، وتحوطها وتؤمنها وتوفر لها سبل الاتصال فيتوفر لها الاستقرار بما تدفع إليه من القوى الرابطة ، وبمـا تشرعه من الأحكام التى توحد الأفـكار وتعلى الغرائز ،وتتسامى بها إلى ناحيةالخير ، وتوجهالجهود ناحية الإنسانية المتحدة المتعاونة الجادة فى العمل لصالح الفرد والجماعة. فى القوى الـكونية جاذبيتا الخير والشر ، وفى كل منهما إيجابية وسلبية ، وفى الفرد قوته الإيجابيةوقوتهالسلبية،والسلبيةفيه أقوى تأثيراً عليه من الإيجابية بما تطرق به أسماعه من أناشيد اللهو والترف أو الاستغلال أو الإهمال أو الأغراض التى تخـدمه فى

حياته الملموسة ، وبما تزينه له من الرجاء العاجل ومن الفرحة بلذة الجسم ؛ لينساب وراء الملاذ والأهواء .

ومن هنا كثر الانتهازيون والمستغلون، ومن يودون السيطرة ويفرضون السلطان ومن ، يغرهم الجاه والمال ، ومن هنا أيضاً كان التراخى والإهمال فى العمل ، وكانت الفوضى فى أداة الحكم وأداة التنفيذ ، ومن هنا سرت العدوى إلى الأفراد والمجتمعات وسادت المادية ، ووجدت الأمم فى غيرها ضعفاً فاستعمرتها ، واتخذت من أبنائها اداة تعتمد عليها فى سلب أرزاقها ، وقتل المعنويات فيها .

ومن هؤلاء الدكتاتوريون والقياصرة والملوك المستبدون . ذلك لأن هؤلاء جميعاً قد خرجوا على النظام الطبيعى لتربية أنفسهم ، وقيادة أممهم ، لقد جذبتهم قوى الشر جذباً عنيفاً ، فضلوا وأضلوا ، وهووا بالحياة إلى دركها الأسفل ، ونسوا فى وسط هذه الدوامة التى جرفتهم أن ما يسعون إليه ظانين أنه ماء إن هو إلا سراب خادع .

وأمثال هؤلاء لن تغفر الحياة لهم ماجنوه من إثم على أنفسهم وعلى أممهم ، ومن هنا أيضاً كانت الدعوة إلى الإيجابية تلقى فى بادئ الأمر مقاومة عنيفة لكل من يقوم بها ، ثم لا تلبث هذه

الدعوة إذا ما تولاها مخلصون أن تأخــذ مكانها فى نفس الفرد وفى نفس المجتمع فيتجاوب معها ، ويتجه فى خط سيره الصحيح فى الحياة ، فتفتح له الحياة ذراعيها ، وتبوئه مكانته التى يستحقها بقدر ما بذل من إيجابية ، وبقدر طاقته من العمل ، بل إنها لتمده بالطاقة تلو الطاقة كلما جد وعمل .

وإن أولئك الزعماء والقادة الذين استجابوا لقوانين الحياة ، وساروا فى طريق الإيجابية هم الذين استطاعوا أن يؤثروا فى أممهم فانقادت لهم ؛ لأنهم يتجاوبون مع حقيقة الحياة فيهم ، مع سر وجودهم ، ويتجهون إلى بناء المثل الأعلى الذى يتجه إليه كل فرد ، ويعملون جاهدين معه إلى تكوين الإيجابية ومحاربة السلبية فى نفسه ، وينتظمون فى العمل ؛ لأنهم يدركون أن الحركة سر من أسرار الكون ، وهى علامة الحياة القوية المثمرة ، ومن فقد هذه الحركة فقد كيانه ونفسه وذاته.

وكلما كثر الإيجابيون فى الأمة كانت أمنع الأمم وأعزها نفرا مهما قل عددها ، ومهما قل سلاح الحرب عندها ؛ لأن الإيجابية فيها قد مكنت لروحها أن تعلو ، ولعقيدتها أن ترتكز وتقوى ، فتقف سداً منيعاً يصد عدوها ، فلا يجد منفذاً ينفذ إليه منها .

وإن أقرب مثل إلينا ، ما نراه من قيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، فقد تولى قيادة هــذه الأمة ، وهى مثقلة بأحمال جسام من التفرق والضعف والأثرة والاستغلال والفوضى ، فما أن بصر الأمة بنفسها ، وحدد للفرد كيانه ، وعرفه ذاته ، وخاطب حقيقة الحياة فيه حتى أخذ يتحد بعد التفرق ، وينتظم بعد الفوضى ، ويعمل بعد التراخى والإهمال .

وتجلت هذه الإيجابية عند ما وقع الاعتداء على بور سعيد ، فهب الشعب عن بكرة أبيه ضد من يريد الاعتداء على كيانه ، ويريد أن يفرق ما اتحد ، ويذل من عز ، لم ينل منه دوى المدافع ولا قذائف الطائرات شيئاً .

ذلك لأنه وجد قيادة حازمة حكيمة ، ووجد دفعاً خالصاً إلى حيث الشعور بالعزة والكرامة ، وجرب العزة ، وجرب الاتصال بالمثل العليا ، فذاق هــذا النعيم الذى يجذبه نحو الخلود فلم يبال بما وراء ذلك ، وسارع الشعب إلى الاستعداد والكفاح والتضحية فى سبيل البقاء الصالح ، وإلا فلا خير فى حياة تعود به إلى ما ذاق منه من اهوال مريرة ، وعذاب أليم .

لقد أراد الشعب الحياة الحرة الكريمة ، .فوهبته الحياة ما أراد ؛ لأن ما أراده هو حقه الطبيعى ، وهو العدل الذى تسير

فى دائرته جاذبية الخير ، وخرج الأعداء صاغرين مع كثرة عددهم ، وقوة معداتهم ومع وسائلهم فى الدعاية المؤثرة على العقول الضعيفة والقلوب المنحرفة ، والأهواء الضالة .

وهم لم يخرجوا إلا بعد ان وجدوا أن الشعور بالتضحية عند كل فرد قد طغى على شعوره بالحياة ، وأنهم لذلك لن يستطيعوا ان يمكثوا حيث هم طويلا ... ورغم أن تأجج هذا الشعور فى فترة العدوان كان بسببه فإن الواجب علينا أن لا نغفله وأن نبقى الصلة به دائمة ومتصلة ...

الألم والتضحية

وطريقنا إلى ذلك أن نعبىء كل الجهود والطاقات من مادية ومعنوية ؛ ليسير بعضها إلى جانب بعض حتى يوجد لهذا البناء الشامخ البنّاء الذى يبنى بيده والمهندس الذى يرسم بفكره ، إذ كلما قويت الأفكار ، وانتظمت ، وكلما بلغت الروح مبلغها أجادت فيما ترسم وفيما تبنى ، وظل هذا البناء شامخا صامدا لا يعتريه ضعف ، ولا يصيبه كلال ، ولا يتسرب إليه الفناء .

وإننا لنلحظ هذا السر القوى فى بناء الأماكن الخاصة بالعبادة ، أو التى أقيمت لتقديس بطل من الأبطال أدى لأمته حقها عليه ، ورسم لها طريق المجد والعزة .

هذه الأماكن نستشعر فيها الرهبة ، ونحس فيها الإجلال والخلود ؛ لأن الاهتزازات الفكرية التى دعت إلى إقامتها ، والأفكار التى رسمتها ، والأيدى التى اشتركت فى تشييدها كل ذلك له أثر عميق فى بعث هذه المشاعر فى نفوسنا أمامها ، وكان له أثره فيما نراه من ضخامة وهيبة ، وفيما تتصف به من الصمود والخلود ، لأن هذه الاهتزازات المعنوية قد امتزجت

بماديتها ، فأكسبتها المناعة والحصانة وكل مادة يشترك فيها الفكر والتخيل ، ولا تدعمها العقيدة لا تلبث حتى يصيبها التصدع والانهيار .

وهكذا الفرد فى الحياة إن كان سلبيا صار مسلوب الإرادة ، وإن كان اتجاهيا يقرأ الحجب التى تحول بينه وبين العالم الآخر كان له هدف يسعى لتحقيقه ، ويدرك بذلك أن هدفه جزء من هذا الهدف العام الذى رسمته الأمة ، فيعمل على تحرير نفسه وينظم اهتزازات روحه ؛ ليوجد التناسق بينه وبين العالم الذى يعيش فيه .

وهذه اولى خطوات الترقى والحضارة فى العالم ، وكل اختراع أو تقدم فى هذا الوجود إنما اكتشفه صاحبه بعد أن طور نفسه ، ونظم اهتزازاته ، فاستطاع ان يكشف من أسرار الوجود ما حقق له الخلود .

وهذا هو السر فى أن الثورة وضعت خطوطا لفلسفتها ، تتلخص فى العمل والتعاون والمساواة ، وسلكت كل السبل لتغرس هذه الصفات فى تربية الفرد والمجتمع ؛ ولهذا لا يكاد مشروع من مشروعات الثورة يبرز إلى عالم الوجود حتى يقبل الشعب على الاكتتاب فيه ، ويسرع إلى تنفيذه ما وسعه التنفيذ .

ذلك لأن الصورة الذهنية للإصلاح قد تبلورت وأخذت مكانها من الفكر المستمد من الإيمان ، الإيمان بالقوة العليا التى تحقق المعجزات وتبنى فى يوم ما يعجز عنه الشك والغموض فى مديد من الزمان ، وقد برزت الصورة واضحة الخطوط ، متناسقة الألوان ؛ لأن فنانها كون الصورة الذهنية بفكره ، وأعمل فيها روحه ، فبرزت دقيقة المعالم تجتذب رائيها وتستهويه بمواضع الحق والخير والجمال فيها .

ولا شك فى أن كل إصلاح يأخذ وقته الطبيعى حتى يؤتى ثمرته ، كما يأخذ النبات وقته الكافى لتثبيت جذره ، وبروز ساقه وارتفاع فروعه وكثرة ورقه حتى تتولد الثمرة وتنتقل أطوارها التى تمر بها ثم تنضج وتصير صالحة للأكل .

وكما أن الزارع يبذر الحب ثم ينتظر ثمرة عمله كذلك الأمة ينبغى لها أن تضحى فى فترة البناء ، وتتحمل ما يعتريها من آلام ، فهذه الآلام هى الطريق الأساسى الذى يساعد على التطور ، ويهيىء للنفوس حدتها ، ويوضح قوة الحس والفكر وينقيها ، ويجعلها أكثر رقة وأعظم صفاء .

هذا الألم هو الذى يمكن المجتمع من الوصول إلى دائرة الانسجام مع القوى العليا ، ويبدد الظلام الذى يبدو فى أول

الطريق حتى يصل إلى النور الذى يشده ويبهره فيسرع الخطا إلى غاياته .

لقد حددنا هدفنا وهو التعاونية الاشتراكية ، فيجب أن نواصل السير فى هذا الفلك بكل ما نملك حتى يحقق للفرد حريته ، ويمهد له الكرامة والعدل والمساواة ، ويوفر له من سبل العيش ما يجعله يفهم حقيقة الوجود ، ويتلقى جاذبية المصلحة العامة مستجيبا لها ، ومتجاوبا معها ، ويصير كالشمس ترفق بالطيب والخبيث ، وترسل أشعتها إلى النبات الضعيف ، فتصعد به من باطن الأرض حيث يلقى الضوء والحياة ، ويدرك كيف يوجه قواه لحاجات من حوله يسقى بالقوة حينا ، وبالرقة أحيانا ، ويوفر وسائل الرضا لكل من حوله ، ويمنح من خيره كل من يطلب ويمد يد المعونة ليحقق بناءنا الشامخ العتيد ، لا يذعن لاستعباد خارجها ، ولا يرتضى استغلالا داخليا ، وإنما عدالة اجتماعية تحقق التكافؤ ، وتهيئ وسائل العمل وعدالة اقتصادية تجاهد فى سبيل التنمية لزيادة الإنتاج ، وتوفير الحياة الرغدة لرفع مستوى كل فرد وعمل متواصل لأن العمل عبادة الله وعبادة للأرض التى تحيا عليها ، وعبادة لأنفسنا ، وهذه العبادة هى التى ترفع عنا الحجب ، التى تسدلها المادية على أبصارنا ،

وحين يرتفع هذا الحجاب تتبدل مظاهر الألم فرحا ، وظلمات النفس نورا ، وتصدح الموسيقى الخالدة فتشيع فينا الطرب والمرح ، ونتنسم النسيم العليل بعد أن كانت تلفحنا العواصف الهوج ، فنعمل ونحن على ثقة من أن الشمس قد آذنت بالشروق ، وأن النجاح قد بات مؤكدا ، وأننا سنصل بإذن الله إلى ما يجعلنا أمة الحق والخير والسلام .

إن الروح التي تهز أعالي الأشجار ، وشعاع الشمس الذي يتسلل من بين الأوراق ، وأغاني العصافير وتغاريدها كل هذه الأشياء الجميلة تنادينا لنتجه نحو الخير ، الذي يشيع في كل شيء ، أسبغ الله عليه الحياة .

وإن الزرقة السماوية لتتلألأ بالأفكار العالية ، بينما الغموض الذي يذوب على رمال الشاطيء يرينا بطلان الجهود ذات الضجيج ، وكيف تذهب هذه الجهود سدى عندما تفقد الانسجام مع الإرادة التي تقود كل القوى .

إن الأمة العربية لتقف اليوم على أبواب القوة العليا ، لأنها تصعد إليها بمادياتها ومعنوياتها ، وأنها لتطرق الأبواب التي تنفذ منها إلى أفكار الحكماء ، وتستعذب لذة الألم ولذة التضحية ،

وتستشعر حب الصلاة فى أوقات الشدة وسرعة الاتصال فى أثناء الألم .

وقد بعدت عن الضلال والسراب ، وحطمت سلاسل الأغلال ، وانطلق المارد الجبار يقودها فى يسر وسهولة إلى عالم الفضيلة والشجاعة ، وإلى حياة فيها عدالة وإخاء إلى حيث يؤدى للإنسانية رسالته ، ويقيم بناءها على أعمدة من الطهر والنبل والمساواة .

أدواؤنا الفردية

هدفنا من كلماتنا السابقة إلى تكوين أيدلوجية الفرد في هذا المجتمع ؛ لتتهيأ لكل أفكار الصلاح والتطور في الطريق المرسوم للمجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ؛ وليسير فى المجرى الذى خطه سيل الثورة العارم ؛ لأن كل فكرة تأخذ وضعاً معيناً بعد ترسبها فى الذهن ثم تتجسد حسب أيدلوجية الفرد ، ولهذا فإن أول ما كان يعنينا فى هذا البحث هو تهيئة الفكر العربى للأخذ بأسباب النهوض والتطور ، بعد الحقبة الطويلة التى قضاها الاستعمار بيننا فمزق الشعب العربى كما مزق الأرض التى يعيش عليها أبناء العروبة ، وأشاع فيه الفوضى الفكرية والاجتماعيه والسياسية والاقتصادية ، مما جعل الأمر فى حاجة إلى تعبئة كافة الجهود ؛ لتوحيد الشعب وتحطيم الحواجز والحدود ليصل إلى غايته المنشودة .

وكان لا بد لنا قبل أن نتحدث عن التخطيط الجديد لهذا المجتمع من أن نفهم عيوبنا الحالية التى سنتكلم عنها ، وأن نوضح نواحيها المختلفة ؛ لأننا لن نبنى مجتمعاً جديداً إلا على أساس هذا

المجتمع الموجود بكل ما فيه من عيوب — ونحن مهما حاولنا غير ذلك — فلن نستطيع لأنه من المستحيل أن نلغى هذا المجتمع القائم ولا أن نستبدله .

فقد خلفت العوامل العديدة التى اعتورتنا من هذا المجتمع أنماطاً غريبة بين الشعوب التى قطعت شوطاً بعيداً فى الحضارة والرقى ، حتى أصبحت هناك بعض مظاهر التناقض التى يعيب مجتمعنا أن تتفشى فيه ، وغدت هناك نواحٍ متباينة فى الأخلاق والعادات والملابس والأذواق ، الأمر الذى يجعلنا ندرك إدراكا عميقاً أن العلة كامنة ، وأنها خطيرة ، ويجب أن تعالج فى كثير من الصراحة ، وفى كثير من الشجاعة أيضاً . . .

وقد يرى البعض أن الأوضاع الاقتصادية هى سبب كل هذا ، ولكن الذى يفهم طبيعة شعبنا ، ويعرف الأسس النفسية التى كونتها حضارته يدرك أن العلة أكبر من هذا ، وأن هناك أسباباً أخرى مباشرة وغير مباشرة ، اشتركت فى صناعة هذه العلة ، وتلك العيوب ، وليس من العسير على من يقرأ تاريخ أمتنا ، أن يشاهد هذه الأسباب متناثرة على طريق التاريخ الطويل

ـ ومن المشاهد أنه ليس هناك سبب واحد منها ناشئ من داخل الشعب ، وإنما كلها عوامل خارجة عنه ومفروضة عليه ـ فهى علل رغم

خطورتها طارئة عليه، وليست أصيلة فيه ، ومن اليسير حين ينتشر الوعى الذهنى والروحى ، وحين يتم النضج الحضارى الذى تعمل الدولة للوصول إليه ، بما تنتجه من وسائل التوجيه الاقتصادى ، وبما تتخذه من عوامل التنمية، وبما تسلكه من وسائل التربية ، أن تزول هذه العلة وتصبح كأن لم تكن ، ويسترد الشعب صحته الفكرية والنفسية وما هذا ببعيد . . .

ويلزمنا لذلك أن نأخذ الأمر بجد أكبر وعزم أقوى ، وأن نكشف هذه العيوب التى لصقت بمجتمعنا وصرفته عن اللحاق بموكب التطور الإنسانى منذ بدأ المسير ، وإن كشفنا لهذه العيوب سيمكننا من معرفتها وعلاجها العلاج السليم ، وسوف يساعدنا على تقصير المدة التى قدرناها لإتمام البناء والإنشاء ، بل ويساعدنا على توفير الكثير من الجهود والأموال، ونستطيع أن نحصر عيوب مجتمعنا فى الفردية والسلبية والجمود ، بل إن الفردية هى أولى هذه العيوب،وهى على رأس القائمة وتتفرع عنها عيوب كثيرة تظهر واضحة فى سلوكنا وأخلاقنا ، ومن السهل ملاحظة ذلك عند من يريد أن يحصى هذه العيوب ، ويدرك علتها ، وهذه الفردية تتمثل فى مظاهر تشاهد كثيراً . . . فاندفاع الواقفين لركوب السيارة أو القطار دون انتظار لنزول

الراغبين فى النزول ودون أى تقدير للضعاف منهم والشيوخ والنساء ، هو نوع من الأثرة المتفرع عن الفردية التى لا تعرف معنى للتضحية من أجل الغير ، ولا تدرك قيمة الشعور الإنسانى بآلام الآخرين ؛ لأنه لو عرف وأدرك لكان له سلوك آخر يبدو فيه التهذيب واضحاً ، ويظهر فيه إدراكه الكامل للحقوق والواجبات له وللناس .

وتتجلى الأثرة بمثل هذا عند كل مصلحة مشتركة بين عدد من الناس يحققها كل فرد بنفسه مثل شباك تذاكر السفر أو على شباك البريد أو المصارف أو المصالح الأميرية أو حوانيت الباعة وبخاصة فى الأيام التى يشح فيها صنف من الأصناف ، ويصبح توزيعه مقدراً بحساب، تجد الأثرة تدفع الناس فى زحام وتقاتل ، وحرص على الفوز والغلبة بشكل يدعو إلى الرثاء والضحك معاً.

ولا تكاد تخطىء ملامح هذه الصفة البغيضة عندما تلتقى بتاجر جشع ، أو صانع غشاش ، أو صاحب ضيعة ، أو مالك مصنع ، أو قائم بإدارة شركة أو بغيرهم من الأنماط البشرية المختلفة التى تلون الأثرة سلوكها بلون الفردية البغيض وتحجب جميع المشاعر الإنسانية الحقيقية عنه فى نفس صاحبه . . .

وتتجلى الفردية فى الأماكن التى تحوى عدداً من النـاس

كالملاعب والمسارح والأندية فرغم النصح والإرشاد اللذين يوجهان إليهم نجد الفردية تطغى على صالح المجتمع ، بل إنها تطغى على فريق الملعب وفريق المسرح ، وجماعـة النادى أو الهيئة أو الشركة ، وتـكون النتيجة الخـلاف والشقاق ، ولا تجدى النصيحة ، ولا الإرشاد ؛ لأن المنبع الأصلى كائن فى أغوارنا ، الفـكرية ، وسراديبنا الوجدانية ، ولا يمكن إصلاح ذلك إلا بجهود كبيرة ، وصبر طويل ، وتغيير لطبيعة الفـكر الذى أحكمت عليه الفردية السلاسل والأغلال . . .

إن عندنا عباقرة كأفراد ولـكنهم عندما يدخلون وسط الجماعة ، وعندما يتطلب الأمر من كل فرد أن ينسى ذاته ، وأن يتخلى عن فرديته التى تثير فى نفسه صوراً خاطئة عن المجد والشهرة والمنفعة الشخصية . عند ذلك تلعب الفردية دورها ، وتفقد العبقرية الفردية أثرها ؛ لأنها فقدت شعور الجماعة والتعاون المستمر بين سائر الأفراد ، والاتساق الذى يجب أن يشعر به كل فرد حتى يتصرف الجميع بإرادة واحدة فى سبيل هدف محدد يعطى للجميع النصر الذى لا بد منه . .

العلة كامنة فى نفوسنا

إن المجتمع العربى ، مجتمع تعاونت عليه علل واحدة مشتركة ، فى ماضيه البعيد والقريب على السواء . فلقد تجرع من الكؤوس المريرة جرعات كثيرة على أيدى المستعمرين والإقطاعيين وما تشعب عن هاتين القوتين الغاشمتين من حزبيين ، وانتهازيين ، وعملاء للاستعمار ، وأذنابه والزاحفين بقوته واستعدائه وجبروته ، على مقدسات الشعب ، ومقدرات المجتمع .

وقد كان ذلك كله سبباً فيما أصاب أفراده من انحراف ، وما طرأ عليهم من علل .

أما وقد رسمت له أهدافه الاشتراكية التعاونية ، فيدفعنا إيماننا بصدقها وعمقها ، إلى أن نبدأ فنغير ما بأنفسنا ، ونستأصل جذور الرواسب الضاربة فى أعماقنا ، ولن نستطيع هذا التغيير إلا إذا أدركنا حقيقة علتنا ، حتى نقبل فى ثقة واطمئنان على تحديد أهدافنا ، ورسم السبل القويمة للوصول إليها .

والحقيقة الأصيلة التى لا نزاع فى تقديرها أن علتنا الوبيلة كامنة فى نفوسنا ، وقد سيطرت هذه العلة على تقديرنا وفهمنا

لحقائق السياسة والاجتماع ، وكانت تلك العلة هى العامل الأول فى تمكين الاستعمار منا ، وفيما أصابنا من نزاع داخلى قضى على تراثنا ، وصرنا نعيش فى أمية اقتصادية ، وأمية اجتماعية وثقافية وصحية ، وأمية قومية ودولية .

هذه العلة هى ضعف المعانى الروحية وعدم الشعور بالمسئولية المشتركة ، فانطوت نفوسنا على حب الأثرة ، وتملكتنا الفردية ، وبعدت بنا التربية عن هذه السبيل ، لأنها لم تقم على فهم النفس ، ولم يراع القائمون عليها غرس الإيمان الصحيح فى بناء كياننا النفسى ، وتربية الخلق والضمير والإرادة والاتجاه نحو خلق مجتمع متحرر من الخوف والحاجة والشعور بالتفاعل مع البيئة التى نعيش فيها ، والجماعة التى نحيا معها ، لم تكن التربية قائمة على أساس الكرامة والعدالة وإنما كانت ترتكز على المركزية والفردية والإقطاعية . . . ، ومن ثم تفتحت أبواب النزاع الداخلى وخلقت الحزبية والعصبية ، ومكنت للاستعمار والإقطاع ، ومضى بنا الزمن ، ومضينا نبعد معه عن تكوين فكر مستنير ، أو وعى سليم ، يهدينا إلى التعرف على وجوه صلاحنا الاجتماعى الذى هو أساس لصلاحنا السياسى .

ونحن الآن نجتاز مراحل حياة كريمة عادلة ، ولى فيها زمن

الاستعمار والإقطاع ، ورسمنا فيها سياستنا التعاونية الاشتراكية الديمقراطية ، فينبغى أن نعرف مكاننا من العالم ، ونبصر كل فرد بحقيقة نفسه ، ونختط من طرق التربية ما يؤهلنا لهذه الحياة الاجتماعية الجديدة .

إننا أمة لها طابعها الخاص فلا هى بالقومية الرأسمالية ولا هى بالقومية الشيوعية ، ونتميز عن هذه القوميات بقومية طابعها الروحانية ، وإن موقعنا من هذا العالم يجعلنا مركز الدائرة المشعة للكرة الأرضية ، ومن هذا المركز انبثقت الديانات والشرائع السماوية التى تدعو للحق والخير والسلام ، وقد حبتنا الطبيعة بنعم عديدة فى أرواحنا ، وكنوز فى باطن أرضنا ، وخيرات تسبح فى بحارنا وتترى فى أجوائنا ، فيجب أن نحقق رسالتنا فى هذا الوجود .

وتحقيق هذه الرسالة يقتضينا أن نعالج التنافر بين مشاربنا ، والتفاوت بين ثقافاتنا ، والتقريب بين النظم التى يسلكها الأفراد فى حياتهم ، وتنتظمها الأسر والجماعات التى تكون مجتمعنا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وإن من معوقات المجتمع أن يتفاوت أفراده تفاوتاً كبيراً فى منطقهم وفى مقاييسهم الخلقية والاجتماعية ، فذلك يحول دون

فهم رسالتهم ، ويضع العوائق فى طريقهم ، ويصيب سلوكهم بالتعثر والزلل .

ولقد كان من أثر ذلك أن شاع فينا القلق والتذمر والشكوى ، وتبع ذلك أن تكونت فينا طوائف كل طائفة ترى أنها أجدر من غيرها ، فعاش أغلبنا لنفسه وحده ، ولم يعد بيننا شعور مشترك يدفعنا إلى التطلع إلى آفاق جديدة . أو ينزع بنا إلى تحقيق غاية سامية، وصار المجتمع أشبه بمتاهة نرتادها للهو وقتل الوقت، حتى وهنت الروابط النفسية والاجتماعية والخلقية بين أفراد الأسرة ، وعاش كل فى واد من أفكاره وأحلامه وأمانيه ، وأصبح الكيان المادى هو الذى يدفع الأب للإنفاق والأم للاستسلام والأبناء للتظاهر بالطاعة .

هذه الحال تستدعى إصلاحاً شاملا لا هوادة فيه ، نحن بسبيله الآن على أن نضع نصب أعيننا أن إصلاح النظم الاجتماعية لا يؤتى ثمرته إلا إذا كانت أهدافه منبعثة عن حاجات من توضع لهم ، ووسائله متسقة مع بيئتهم وعاداتهم وافكارهم وتاريخهم .

فذلك هو الذى يحفز أفراد المجتمع إلى وضع اللبنات القوية التى تؤكده وتنميه وتبرزه من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة . إذ أن الأنظمة التى تقوم عليها الأمم ليست مجرد مظاهر لها ،

وإنما هي تعبير عن فلسفة خاصة تبلورت وأخذت سماتهـا التي تميزها عن غيرها من الأمم .

ويخطئ أولئك الذين يتجهون إلى نقل وسائل أمم غريبة عنا ، ومحاولة تطبيقها على أمتنا ومجتمعنا ، فهذه النظم تبوء بالإخفاق، لأنها في أبسط تعليل تخالف نظمنا وبيئتنا وسياستنا وموقعنا ولاتلتقي بنزعاتنا التي تأصلت فينا .

ومن هنا ينبغي أن نحدد للفرد من وسائل التربية ما يحقق كيانه ، ويعرفه بوجوده فيؤدي رسالته بإيمان وقوة ، وينسى في سبيلها مآربه وأهواءه ، إن تحقيق هذه التربية هو الذي يثير نشوة الإيمان ، ويحرك القوى الكامنة في المشاعر والأحاسيس ، ويحول الطاقة المدخرة إلى عمل ظاهر فعال .

لكن هل من اليسير أن يدرك المرء رسالته ؟ إن إدراك ذلك يحتاج إلى جهود فكرية ونفسية شاقة ، فكثيراً ما يخلق الفرد لنفسه أهدافاً لا يكون أهلا لها ، ويرتدي من الخلق ما لا يتفق وأفكاره فيلتبس عنده الحق بالباطل ، وهنا يسود المجتمع الفردية والأثرة ، ولهذا يجب أن يكون العلاج حاسماً حتى ولو اقتضى بتر العضو الأشل والقضاء على العناصر الجامدة التي تحول دون الإصلاح .

علينا أن نربى فى كل مواطن الشعور بالمسئولية الاجتماعية حتى تختلط بتفكيره وإدراكه ، وتؤثر فى أقواله وأفعاله ، وتصبغ عواطفه وميوله ، فيشعر أن كل عمل يؤديه له أثره فى المجتمع الذى يحيا فيه ، وأنه لا حياة له بغير هذا المجتمع فيعتاد التضحية بالرغبات الفردية ، والمصالح الخاصة ، ويفنى فى المجموع لخير المجموع ، وحينئذ يجد المجتمع الطريق معبداً بين يديه ، يعبره فى يسر وسهولة إلى غاياته المرجوة المنشودة ، التى تصل إلى الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ، التى نبتغى إليها الوسيلة .

الجمود

تكلمنا عن الفردية باعتبارها على رأس القائمة التى تشتمل على عيوبنا جميعا ، وأبنا أنه يجب أن نستأصلها من نفوس الأفراد حتى نشق طريقنا فنحن فى حاجة إلى تغيير العلاقات النفسية التى شاعت فينا ، نتيجة المراحل التى مرت بنا . . بحيث نأخذ لون العلاقات الإنسانية التى تقوم على أساس الشعور بالحرية والعدل وروح التعـاون الحقيقى النابع عن التضحية ، والإيمان بالمستقبل ، والإصرار على الوصول إلى الهدف فى عزيمة لا تضعف ، وإقدام لا يهاب ... لأن الظروف التى نعيش فيها تفرض علينا حياة معينة ، وكفاحا شاقا من أجل بناء المستقبل ، ويجب أن تكون هذه العلاقات محددة له الطريق الذى يجب أن يسير فيه ، لأن أى خطأ أو انحراف سيرجع بنا القهقرى أجيالا عديدة ...

ومن الفردية نجمت صفة الجمود التى ترين على حياتنا اليومية فى المنزل وفى الشارع وفى الديوان ، وأشاع فينا الضعف والاستكانة والخوف ، فتعقدت نفوسنا ، ومضت الأسرة على وتيرة واحدة ، فى حياتها تكرار يجلب السأم والملل ، ويدفع

إلى الانطوائية والبعد عن غمار المجتمع إيثارا للسلامة ، وصار كل فرد فيها يتصرف فى حذر وخوف ، ومن هنا دب الخلاف والشقاق فى كثير منها وخرج الأبناء عن رقابة الآباء .

ومن هنا أيضا كثر إنشاء المقاهى ، فما يكاد حى بل ما يكاد شارع يخلو منها ، وصارت هذه المقاهى مجتمعا يمثل الجمود والفضول ، فضول النظرات وفضول الكلام ، مما أفسح المجال لخلق الشائعات وذيوعها وكثرتها ، وقد حشتها الأخيلة بالطرائف ، وملأتها بالأكاذيب ، وضاع الوقت هباء ، فلم نعرف له قيمة ولم ندرك أنه الحياة ، وأنه يقتلنا ويطوينا دون أن ندرك قيمته ، ودون أن نعرف أن فى ضياعه ضياعا لحياتنا الفردية وحياتنا الاجتماعية ، وتعطيلا لقدرتنا الإنتاجية ، وشب الأطفال وسط هذا الجمود ، وانتقلوا إلى المدرسة بهذا الاضطراب النفسى فى الأسرة فلم يجدوا فيها العلاج الذى ينتشلهم ، وخرجوا من التعليم صفر اليدين : مواهب معطلة وأفكارا مغلقة ، وأذهانا ضرب الجمود عليها أطباقه فسعوا إلى الحكومة ينتظمون فى سلكها ، ويكفلون بالوظائف العيش الذى يحفظ الرمق ، ويضفى مظاهر الجاه ..

هناك فى الديوان وعلى المكاتب ، تربع الجمود ينتظر كل قادم

ليطبعه بطابعه ، يعيش الرئيس في الديوان كما يعيش في المنزل ، يفرض السيطرة ويمنع التصرف ويستأثر بالأسرار .

ومن هنا كان الروتين في الأداة الحكومية .... ، وكان ضعف الثقة بين الرئيس والمرؤوس ، وسرى الخوف والحذر حتى لا يكون التصرف بعيدا عن هذا السر أو منافيا له ، أو حائلا دونه ، وكان التزام الحرفية في كل أمر ، وصار مفهوم اللوائح والقوانين لا يتعدى منطوقها ، وأخذت كل ورقة تخطو خطوات متعددة ، وتعددت فيها التوقيعات ، وتأخذ عند كل توقيع دور الالتباس والحذر وسوء الظن .

وبدلا من أن تكون الزيادة في الموظفين سببا في إنهاء العمل كانت سببا في التعثر وعونا للجمود ، لأن هذه الزيادة لم تكن للحاجة إليها ، وإنما كانت إرضاء للحزبية وللقرابة والرشوة ، وهذا الجمود نفسه هو السبب في نقص اللوائح والقوانين ذلك النقص الذى يبدو في عدم تحديد العمل لكل موظف تحديدا يمكنه من حمل المسئولية وتقديرها ، وعدم ترتيب الوظائف ، ووضع الموظف الكفء في المكان اللائق بالمرتب المناسب .

وكان الاعتماد على المحسوبية في الترقية والحماية سببا في التراخي

والإهمال والتكاسل ، ودبيب الغيرة والحسد والتفكك بين الزملاء كما كان داعيا للملق والنفاق .

هذا الجمود الذى شمل قطاعات حياتنا هو السبب فى أن كثيرا منا كرهوا الرحلة وآثروا الفقر مع الراحة ، اللهم إلا انتقال طبقة المتعطلين من الريف إلى المدن ، وانتقال أرباب الثروات بغية اللهو والعبث والإسراف ...

لقد سرى الجمود فى حياتنا فترة طويلة فكان سببا فى ضعف الإدارة والحكم والتنظيم والتخطيط والصحة والتكوين الخلقى والروحى والدينى ، فأصاب تصميمنا البنائى الخلل والاضطراب ، وضعف تفكيرنا عن فهم الحقائق ، فتسربت إلينا الأفكار الهدامة دون أن ندرك حقيقتها ومقدار صلاحيتها لنا ، وصرنا مساقين بوسائل التضليل والوهم والخداع .

وقد طغى الجمود حتى ركنا إلى السلبية ، هذه السلبية التى جعلتنا نقف من الأحداث موقفا لا إيجابية فيه ، نتألم ، ولكننا نظل مكتوفى اليدين مغلولى الفكر ، وإن نزعنا إلى الثورة على الأوضاع كانت ثورتنا سلبية تتمثل فى المظاهرات والهتافات ...

وكان من نتيجة هذه السلبية أن تكونت عندنا مشاكل متعددة توارثناها واستمرت معنا نتيجة للعوامل المختلفة التى

احاطت بنا ، فلم تقم بعمل إيجابى تجاه انخفاض مستوى المعيشة ، ولم نطور أنفسنا لبناء المجتمع الصناعى ، ولم نأخذ بالوسائل التى تستغل بها مواردنا المعدنية والحيوانية والنباتية ، ولا بالأسباب التى تزيد المساحة المزروعة من أراضينا ، ونهجنا فى طرق التعليم منهجا نظريا ، فلم نتزود منه بالقدر الذى يخلق المواطن الواعى القادر على خدمة نفسه وخدمة مجتمعه ، مما أدى إلى انتشار الأمراض بيننا ، وكان سببا فى توطن كثير من هذه الأمراض نتيجة ما نرسف فيه من الفقر والجهل ، وشاعت فينا الخرافات التى تناولت النواحى الصحية والفكرية ، وكانت ستارا كثيفا حجب التفكير السليم لحل المشكلات حلا يتفق مع مصلحة الجماعة .

كما كانت السلبية دافعا إلى الاعتقاد فى الحظ والتواكل ، وترك الأمور تسير فى ارتجال دون تنظيم سليم أو تخطيط دقيق ، وكان اعتمادنا على الصراع الجدلى فى مناقشة بعض القيم ، دون الأخذ بالأسباب ، ودون الحلول العلمية السليمة .

إلى أن جاءت الثورة فقضت على الفساد والإقطاع ، وأطاحت بالاستعباد والاحتكار والاستغلال ، وبدأت تربى فى الفرد هذا الشعور بالمسئولية الاجتماعية بعد أن بدأت تشركه فى تسيير دفة الحكم فى المجتمع ، وما إن أحس الفرد بإزاحة هذه العقد

عن نفسه حتى بدا حياة جديدة تمثلت فى إحساسه بالقيم الخلقية والمثل العليا ، وبدأ ينخرط فى سلك الهيئات التى تسعى نحو إسعاد المجتمع .

هذه الحركة الثورية والفكرية تحتاج إلى المزيد من الرعاية ، ولابد لنا من أن نعمل ما وسعتنا القدرة على دعم هذا الميدان بشتى السبل وعلى العمل المتصل المصمم للقضاء على عيوبنا التى كانت سببا فيما وصلنا إليه فيما مضى والتى نحاول اليوم بقوة إيماننا بثورة الشعب أن نقضى عليه . . . .

ولا تقتصر عيوبنا على ما ذكرنا بل إن هناك عيوبا لن نأتى عليها ، لأننا لا نعمد إلى الحصر بقدر ما نقصد إلى التمثيل .

عاداتنا


مما نشاهده من عيوبنا عاداتنا التي ورثنا بعضها من عهود الطغيان والإقطاع .

وإذا كان لكل أمة عادات عامة خاصة بها ، لا تتشابه فيها بأمة أخرى ، وتتكون بسبب ظروفها التاريخية والاجتماعية على مدى الأجيال. فإن هناك عادات أخرى لا تتصل بالعادات التي ذكرناها، وهي غالبا ما تظهر في المجتمع بسبب ظروف وملابسات وأحداث طارئة تخلقها ، وتبقيها كمظهر من مظاهر الأمراض الاجتماعية التي تصيب المجتمع في ظل هذه الظروف ... وإذا كنا نعد ماضي الأمة ، ونعد عقائدها كذلك مقياسا لقوة روحها ، فإن عادات الأمة الخاصة والعامة إن صح هذا ، تعد مقياسا لنفوس أفرادها ... وإذا كانت نزعات الأمة الأصلية والتي انحدرت إليها من العصور السحيقة ، واشتركت في تقويم خصائصها ـ تظل ثابتة ودائمة وباعثة لأفكارها ومشاعرها ، وحائلة بينها وبين التغيرات التي توجبها النظم الطارئة عليها . . . فإن عاداتها التي نشأت في الظروف والملابسات الطارئة ، والتي بقيت مظهرا للأمراض

الاجتماعية التى أصابتها فى ظل هذه الظروف - ليست ثابتة ولا دائمة بل هى قابلة للتبديل والتغيير . . . لأن بقاءها يتعارض مع نزعاتها الأصلية ومرهون فى الوقت نفسه ببقاء الظروف الطارئة إلى حين . . فبقاؤها بعد زوالها يحمل الدلالة على جهل أصحابها وعدم إدراكهم لمقدار ما تكشفه فيهم من نقص الشعور بالجمال الذى يفقد المرء معنى الحرية الإنسانية . . . والأمة - وخاصة إذا كانت فى مرحلة انتقالية - تشق الطريق إلى التطور الذى تنشده ، وإلى الغايات التى تحلم بها ،وتحاول بكل مافيها من طاقة وجهد أن تبعد عنه العراقيل ، وأن تزيح جميع العوائق حتى تضمن السير بلا مشقة والوصول بغير تضحية وهى تشعر أن الأمراض التى أصابت جسم المجتمع خلال الأجيال الطويلة بسبب ظروفها التاريخية والاجتماعية التى أشرنا إليها من أكبر إن لم تكن أكبر العراقيل التى تقف أمامها وتؤخر سيرها إلى التطور والوصول إلى الغايات . . فهى خلال كفاحها من أجل تطورها تتعرض لكثير من المذاهب والنظم التى تحاول أن تبدل روحها أو تغير قيمها ، أو تعوق نموها، أو تؤخر تطورها وهى بفطرتها تقاوم ذلك أعنف المقاومة وتناضله أشد النضال ، وتتوسل فى هذا بكل الوسائل التى يجب أن يتذرع بها فى النضال مجتمع سليم

صحيح ماديا ومعنويا . . . ولكى تتحقق لها سلامة المجتمع وصحته تلتفت إلى عوامل الضعف والتفكك ، وتدرك أن أهم أسبابها الفردية والجمود والسلبية التى خلقت فيها عادات سيئة تعوق نموها وتبعث القلق فى نفوس أفرادها وتلصقهم بقيود الضرورة ، وتغلهم بأغلال الحاجة . . . وتجعلهم يفقدون شيئاً فشيئاً روح الطموح والرغبة فى الوصول إلى حياة أفضل وأكمل .

وهذه العادات ـ وبخاصة ما كان منها نابعا فى بواعثه الخفية من الفردية والجمود والسلبية والتى تشكل خطرا كبيرا على خصائص الأمة ومقوماتها وتصميمها على التقدم الصاعد إلى الغايات البعيدة ـ هذه العادات يجب أن تزول ، لأنها لم تعد تتفق مع المرحلة الجديدة لحياة الشعب المتطور ، لأن جميع الأسباب الاقتصادية والتاريخية قد انتهت بقيام الثورة الكبرى ، التى غيرت وبدلت ، وقلبت جميع الأوضاع الفاسدة التى ورثها الشعب رغم أنفه ، ووضعت النظم الكفيلة بتهيئة الفرصة أمام كل موهبة تريد أن تعمل وأن تبدع ، وأن تبنى مع البانين للأجيال القادمة . . . ولأنها بعد ذلك مجافية لما يجب أن يكون عليه الإنسان الواعى ، المهذب ، الطموح ، الذى يعيش فى مجتمعه عضوا نافعا لنفسه وللآخرين ، لم يفقد روح الذوق الإنسانى ،

والشعور الحى بكل ما فى الحياة من فرح ومن جمال .

ومن هذه العادات : مظاهر البذخ والفخفخة فى الأفراح ، والمآتم والمشارب والتفوه بالألفاظ النابية ، والتكلف فى الجلوس والضحك ، وطريقة الأكل والشرب واختلاف الأزياء ، وتغيير نبرات الصوت ، وعدم مراعاة آداب الحديث وآداب الزيارة وآداب الطريق ، وإلقاء الفضلات والقاذورات والبصق ، والإشارات والحركات ورفع الصوت ، والجلوس على المقاهى ولعب الطاولة والورق والدومينو ، وإقامة الحفلات الخاصة التى يبدو فيها الإسراف ، ويحدث فيها ما يندى له الجبين إلى غير ذلك من العادات التى نلحظ كثيرا منها فى سائر الأوساط .

وقد يبدو بعض هذه العادات لأول وهلة غير ذى بال ، وأنه لا تأثير له فى المجتمع ، ولكننا إذا أمعنا النظر ، وجدناه يمس الذوق العام ، ويؤثر فى النفس ، ويتنافى وحسن السلوك ، فضلا عن آثاره الصحية والعقلية ، وآثاره الاجتماعية التى تمزق روابط الألفة ، وآثاره الفكرية التى تعوق نمو الانتباه والإرادة والتخيل .

إن مقياس التفاضل بين الأفراد وتكوين شخصياتهم يكون

تبعاً لهذه العادات ، وعلى قدر ما فى عادات الأمة من تهذيب ورقى أو سوء وتخلف تظهر شخصية الفرد وطابع الأمة ، ولهذا ينبغى أن نحرص على أن تكون عاداتنا ذات طابع يتلاءم مع الذوق العام ، وترتضيه الطباع السليمة ، ويكون الشخصية المتزنة الحازمة ، ويوجد الاتجاه ويخلق الحصافة التى تدرك ما وراء القشور ، فيزول القلق ، وتخف الشكوى وبخاصة الشكوى من قلة الأجر والمرتب ، وضعف الدخل ، تلك الشكوى التى ينسى أصحابها أنهم مسئولون عنها ، وأن سببها نابع منهم ، فهم لو وازنوا بين ما يتقاضون وما ينتجون لعادوا باللائمة على أنفسهم ، ومن ثم يجدون فى إزالة الحواجز التى تثير الشكوى ، وتضعف الإيمان بالنفس وبالذات ، فلا يعيشون فى ماضيهم ، ولا يتمسكون بعادات من مضوا ، ولا يدورون فى دائرتهم ، ولا ينحون منحاهم الرجعى السلبي، فتقوى مقدرتهم على الإبداع والخلق والرضا والطمأنينة .

إن إزالة هذه الحواجز كما تدفع إلى تغيير العادات تهيئ الجماعة للتغلب على اللاشعور ، فلا تتسرع فى الحكم والانفعال ، وتبدل مظاهر الحياة التى يعتادها الفرد ، فتصدر عنه بلا وعى ولا تفكير ، وتشعره بالمسئولية والاندماج فى سلك الحياة

العامية ، فيكشف من أسرار الحياة مايستنير به فى عمله ومعاملته لغيره . ومتى شغل المرء بالعمل ، صار أمتن خلقا وأكثر نفعا ، واستطاع أن يتمتع بالحياة ، ويتذوق ملذاتها ، وينمو فيه الشعور بالسرور والفوز والارتياح .

ولقد زودت الطبيعة كل كائن بقوى جسمية وعقلية مختلفة، وهذه القوى تستوجب أن نستغلها فى العمل والنهوض واستغلالها ييسر لنا الحياة التى تتلاءم مع قوانين الطبيعة والوجود ، ومن ثم ينتقل المرء فى أطوار الرقى ، ويكسب الشعور الذى يميز بين الأمور ، ويساعد على تجنب أسباب القلق والاضطراب ، ويوجهه الوجهة التى يتطلبها ارتقاء النوع الإنسانى ، بما ينمو فيه من عوامل الطموح ، وتحديد المثل التى تمده بالمبادىء السامية ، وتهىء أصلح الوسائل وأقربها للوصول إلى هذه المبادىء من مكافحة ومثابرة ومقاومة .

التعاونية الاشتراكية ومصادرها

إن تكوين الفرد ليس بالمهمة السهلة ، وليس هو مما يتم بسن القوانين والشرائع فحسب . . . بل لا بد له من ثورة فكرية تستطيع أن تحقق مع الثورة الاجتماعية الغرض المطلوب .

وقد أدرك العهد الجديد ذلك فأخذ فى تقوية الشعور القومى ، وتعريف الفرد بقيمته ، وعبأ إحساسات الجمهور لتوجيهها نحو غاياتها النبيلة التى رسمها والتى تتفق مع مقوماته المعنوية والمادية ، كما أدرك أن نظم السياسة والاقتصاد والإصلاح الاجتماعى لا تتأتى بنقلها من أمة إلى أخرى ؛ لأن هذا النقل عملية آلية ، لا تلبث أن تزول ، فسلك الوسيلة الطبيعية لهذا الإصلاح ، وعمل على تكوين رأى عام مستنير ، وتهيئة الأذهان لاستقبال أفكار جديدة عن الحياة ، وأخذ يدعم هذه الأفكار بالوسائل الدينية والدنيوية الصالحة .

وإذا فهمنا ذلك فينبغى أن يتجه نظرنا إلى نظم التربية منذ الطفولة . . . بحيث تكفل هذه التربية لكل فرد كياناً فكرياً ينسجم مع كيانه الشخصى ، وتحفزه إلى إبراز الصفات الحسنة

الموروثة ، كما يجب أن يتجه الإصلاح إلى البيئة التى تحيط به ؛ ليتلاءم العالم الخارجى مع الصفات التى نعمل على خلقها فى المواطن . ذلك لأن بناءنا الاجتماعى ونشاطنا العقلى والمادى فى حاجة إلى الترابط والتنسيق .

وبغير هذا التوافق بين البيئة والتربية لا يكون هناك مجال للتعاونية والاشتراكية ، ولا يمكن لنظامنا أن يسير سيراً طبيعياً .

إن كثيراً من نظم التربية تهتم بالنواحى العضوية دون اهتمامها بالأمراض العقلية والنفسية العامة ، مع أن هذه الأمراض أكثر خطورة على المجتمع ، وهى منشأ ما فيه من إجرام وفساد وفقر .

ولهذا ينبغى أن تكون لنا فلسفة تربوية خاصة فى الحياة ، تهيىء لنا قواماً خلقياً خاصاً ، وتبعث فى نفوسنا نشوة الحياة ، حتى تتلاقى أفكار المجتمع بعضها ببعض ، وتتبلور نحو غرض سام يهدف له المجتمع ويسير أفراده عليه فى نظم معيشتهم وطرق لهوهم وجدهم .

ذلك لأن الفكرة فى المجتمع المتقارب سرعان ما تتلقفها الجماعة فتتكاثر ثم تنصهر وتحتل مكان العقيدة فى نفوسهم ،

فيعملون على إبرازها؛لأنها أخذت سبيلها فى تطورها العقلى والزمنى ولأن لها وازعاً من الضمير والإيمان .

أما إذا حاولنا أن نخلق أفكاراً — وأن نحشد لها جمهوراً مختلف الطباع والأخلاق والتربية ، فإن هذه الأفكار لا تلبث أن تكون موضع الخلاف والجدل والتأويل؛ لأن تيارات الفكر مختلفة والبواعث الروحية متناقضة والمظاهر المادية مرآة لأفكار الأمة وعواطفها ؛ ومن أجل هذا يصيب الفشل الجمعيات والهيئات التى تقوم عندنا ، لأن كثيراً من الأفراد الذين انضموا إليها إنما انضموا بواقع من كسب المظهر وبلوغ المآرب .

ولكى نخلق المجتمع المترابط الذى ننشده ينبغى أن تتجه فى التربية نحو العوامل الطبيعية والكيماوية التى تؤثر فى تكوين الألياف والأمزجة والعقل ونحو تأثير البيئة على الجهاز الآلى المهيمن على النشاط الجثمانى ، متمشين فى ذلك مع قواعد العلم التى تعمل على تقدم الفرد ، وتحفزه إلى تكوين نفسه .

إن الخصائص الطبيعية والكيمائية للجو والتربة والغذاء يمكن أن تستعمل كآلات لتقويم الفرد ، فصفات الجلد والقوة تظهر فى قاطنى الجبال ، والجو البارد يدفع نحو الحركة والنشاط ، وإنه لمن حسن الحظ أننا نعيش فى جو معتدل لا نحتاج فيه إلى إنفاق

جهد للاحتماء من الطبيعة كما تفعل الأمم الأخرى . فهـذا الجو يعاونتا على مواجهة الطبيعة والإفادة منها . . .

وذلك يوجب أن نعمل فى سبيل تربية الروح القوية ، وأن نتخذ من المناهج ما يوفر النشاط والحركة فى فصل الشتاء لتعويض ما يصيب الأجسام من الفتور فى فصل الصيف .

عندنا طبقة الفلاحين والعمال يبذلون جهوداً مضنية تجعلهم يستهلكون كثيراً من عناصر حيويتهم ويفقدون بعض المركبات الكيماوية فى أجسامهم .

وإن المشروعات والتخطيط الصناعى والزراعى الشامل ، والذى يعامه جميع الشعب ويراه إنما الهدف الأخير منه هو رفع المستوى لكل فرد ، وجعله بحيث يمكن من ورائه أن تقدم الدولة الغذاء المفيد الذى يعوض عمالها وفلاحيها عما يفقدونه من المركبات العضوية ويستهلكونه من عناصر الحيوية حتى يستطيعوا أن يبذلوا هذه الجهود بعيداً عن الأمراض التى تنتج عنها ، ويعيشوا حياتهم عاملين على تحقيق آمالهم ومطالبهم ، شاعرين أن لهم كيانهم ووجودهم كما يمكننا من توزيع اللبن على أطفالهم حتى يتوازن الجهاز العقلى لهذه الغالبية من الشعب ، وتهيئة المنازل الصحية لهم .

ومن أجل ذلك ، وفى سبيل هذه الغاية ، تهتم الدولة بنشر الرياضة فى المدارس والنوادى والمجتمعات والمصانع وغيرها . فكل هذا يفيد الجسم والعقل والأعصاب .

والحق أنه يجب أن نروض الشعب كله على الرياضة المفيدة لينجاب عنه غبار الكسل والخمول الذى يلاحقه .

وكما تعبىء الدولة جهودها نحو محاربة للعوامل التى تؤثر فى نفسية الفرد كالأمن والفقر والمسئولية ، لتكفل سبل العيش الكريم ، والإنتاج المثمر ، يجب عليه هو أن يحمى نفسه من العوامل الداخلية التى تغير من نفسيته ، وتنال من شخصيته . وسبيل هذه الحماية : أداء الصلاة ، والصوم ، وتوجيه التفكير إلى الخير ، وبذر بذور الإيمان فى قلبه وعقله ، وبعث التأمل فى نفسه وفى الكون . فهذه الرياضة النفسية عامل هام من عوامل تكوين المجتمع السليم ؛ لأنها تحول حقائق الوجود الكامنة ، إلى مظاهر ملموسة ، وتحول الأفكار إلى مادة متجسدة تنفع المجتمع .

هذه العوامل النفسية هى التى تفتح آذاننا وتوسع مداركنا وتحرك قوى الفكر فينا ، وتربط تاريخنا الحاضر بمجدنا التالد وبهذا نكون قد استطعنا أن نغير ما بأنفسنا ، وأن نخلق الظروف

الملائمة لنمو شخصياتنادون أن نتركها خاضعة لما تفعل فيها ماتشاء ، ونكون بهذا التغيير المقبول قد سايرنا قانون الحياة وتطورها .

إن كل فرد حلقة فى سلسلة المجتمع . ومعنى هذا أن الترابط بين كل فرد وفرد شىء لا يمكن فصله مع اعترافنا باستقلال ذاته.

وتربية المجتمع تربية سليمة لابد أن ترتكز على قواعد متينة ، ومن أهم هذه القواعد التربية الدينية فهذه التربية هى التى تمدنا بالسماحة دون غلظة وبالقوة دون ضعف على أن تكون متمشية مع العلم الصحيح ، قاطعة لدابر الخرافات والأوهام .

فإذا ما فهمنا الدين على حقيقته ، وأنشأنا جيلا رياضياً ، وعنينا بالتغذية الصحيحة ، وراقبنا سلوكنا الخارجى والداخلى صار لنا طابعنا الخاص الذى يميزنا عن غيرنا من الأمم ، وحق لنا أن نكون خير أمة أخرجت للناس تحفظ التوازن الدولى ، وتربط الإنسانية برباط التعاون الذى يوفر السلام والمحبة على هذه الأرض .

من وسائل الإصلاح

هذه بعض الوسائل التى تساعد على تربية الفرد تربية صحيحة، وتعده إعداداً سليما يتفق مع البيئة وقواعد العلم، ونود أن نشير الآن إلى أن وسائل التربية تستلزم منا لتحقيقها أن نستغل حواس الإنسان المتعددة، ونهيء لكل حاسة ما يؤثر فيها، فنخاطب حاسة البصر بالملصقات واللوحات والكتابة والسينما ... ونخاطب حاسة السمع بالخطابة والإذاعة، وحاسة الشم باتخاذ زهور معينة ترمز إلى الغاية التى نقصدها ونحتفل بها فى أوقات معينة، وحاسة اللمس بتحية خاصة تثير شعلة الوطنية، وحاسه الذوق باختيار غذاء شعبي يتذوقه الشعب كله فى يوم واحد كرمز لوحدة الشعور.

هذه الوسائل توجه التفكير توجيهاً إيجابياً، وتحدد للأفراد شعارهم، وتدفع الفرد ليعمل أكثر مما يتكلم، وتفتح باب التفاؤل والثقة وتوجه الأمم لمعالجة النقص، فتصبح الحياة نورا يضيء لا نارا تحرق، ويصير الفرد أداة بناء لا معول هدم.

وينبغى أن تكون الهيئات والجماعات للقيام بهذه المهام فى كل قرية وفى كل حى على أن تضع هذه الهيئات والجماعات

الأسس الآتية هدفا تسعى إلى تحقيقه :

إحساس الفرد بقيمته

طاعته للقوانين السماوية

تعريفه بحقوقه وواجباته

احترامه للغير

شعوره بالمسئولية الاجتماعية .

ونحن لهذا نرى أن من حقنا أن نطالب أعضاء القاعدة الشعبية للاتحاد القومى بالعمل على إرساء هذه الأسس وإعلاء هذا البناء ، فقد اختارهم الشعب ووثق فيهم ليوجهوه وجهة الخير ويعملوا على النهوض به فى شتى مرافق الحياة .

إن فى وسعهم أن يتبينوا أوجه النقص ، ويرسموا سبل العلاج فيمحوا ما بنا من أمية سياسية واقتصادية واجتماعية ، وينزعوا عن الشعب ثوب الرياء والنفاق ، وينفضوا عن النفوس مافيها من أثرة وجشع ، ويرشدوا الأفراد إلى ما يجنبهم ويلات المرض ويسلكوا بهم السبل التى تكثر من الأيدى العاملة فتزيد من إنتاجنا حتى نصل لغايتنا فى أقرب وقت ومن أقصر طريق .

وعليهم أن يبصروا المجتمع بوضعنا الدولى ، وموقعنا الجغرافى

وأثرنا فى المجتمع البشرى منذ القدم ، وصلة مبادئنا بأمجادنا واتساقها مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وتعريفهم بمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ورسم الطرق الصحيحة لعلاجها والقضاء عليها .

إن كل هيئة من هذه الهيئات تستطيع أن تستعين بالمتخصصين فى الشئون الصحية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، كما تستطيع أن تجند الطلبة ليقوموا برسالتهم فى هذه النواحى ، فذلك يدربهم على الحياة ، ويشعرهم بأهميتهم فى المجتمع ، ويخلق منهم جيلا يصلح لتلقى المسئولية .

وعن طريق هذه اللجان يمكن أن تنفذ إلى قلب كل فرد ونوحد هذه القلوب ونوجهها وجهة لها غايتها السامية بما نهيئه من الاجتماعات فى الأندية وفى المدارس وفى أماكن العبادة ، وبذلك نربى فيه روح الابتكار ، كما يمكن نشر الصناعات الريفية والتعرف على ما يعترض هذه الصناعات من صعاب لتذليلها ، وتوجيه الشباب إلى الانتفاع بأوقات الفراغ ، ونقل إحساسات الجمهور ورغباته إلى الأداة الحاكمة ، فيصدر التشريع استجابة لرغبات الأمة .

على أن تستعين هذه اللجان بطبع النشرات المبسطة وتوزع على من يحسن القراءة وتقرأ لمن لم يحسنها ، وتخصص الإذاعة برامج خاصة تذاع بتوجيه موسيقى يؤثر فى نفوس المستمعين ، وتعمل على إخراج أفلام تعليميه تعرض فى مقار هذه اللجان ، وتعرض فى الريف كل أسبوع مرة حتى يراها سكانه فى أوقات خلوهم من العمل .

أما الهيئة العامة للقاعدة الشعبية فهى فوق إشرافها على تنفيذ هذه البرامج فتستطيع أن تقسم الشعب إلى طوائف : من عمال وفلاحين وأجراء وأصحاب أملاك وموظفين ورجال تعليم ورجال صحافة . . . الخ .

وتفحص مشاكل كل طائفة وتضع لها الحلول المناسبة التى تتمشى مع إمكانيات الدولة ونظمها ، وترسم السياسة العامة التى تكفل اتساق المجتمع وتوحيده فكريا وعاطفيا .

وبذا نكون قد وجهنا المجتمع بكل أفراده نحو غرض واحد ، ونكون قد يسرنا سبل الاتصال والتعرف على رغبات الشعب ، وبعثنا فى المجتمع الحياة التى يرتضيها فيكتمل نموه ويندمج فى حياة لها فكرتها السامية وهدفها الأعلى ، ويؤدى الفرد رسالته نحو نفسه وربه ووطنه وقوميته .

التربية الاجتماعية

وما دمنا نتكلم عن إصلاح هذا الجيل ، فإنه ينبغى ألا يفوتنا التخطيط لمستقبلنا الباسم ، وأن نبدأ بالبداية فيه ، حيث ينبغى أن يبنى الأساس سليما متينا ، والطفل هو الأساس الذى نبنيه ؛ لأننا نبنى به الجيل الصاعد .

إن الذى يجب أن نفهمه تماما هو أن الشعور بالمسئولية الاجتماعية ينمو مع الإنسان منذ الطفولة إلى الرجولة ، وتأخذ هذه التنمية مراحلها متى عملنا على استغلالها وتزويدها بالخبرة والتجارب فى كل مراحل الحياة — فى البيت وفى المدرسة وفى الجامعة . . . وهى إذا أخذت مراحل تطورها ونموها جعلت من الفرد أداة صالحة يتحقق فى ظلها الهدف الذى ينشده المجموع .

فالبيئة الأولى التى ينشأ فيها الإنسان تنتقل معه إلى مجتمعه بكل مافيها من أفكار وعادات ، وبكل مايوجهها من دوافع نفسية ، وبكل مايتشابك فيها من حوادث وقصص ؛ لأن هذه العوامل تتخذ جذورا أصيلة تمتد إلى أغوار سحيقة وتلتصق بالمشاعر ، ومن الصعب أن تنتزع منها بأيةمحاولة ؛ لأنها تكونت

فيه منذ درج على ارض الحياة ، وعاش فيها طيلة أيامه ، وأثرت في كيانه ومفهوماته الخاصة عن الحقائق والأشياء.

ولهذا ينبغي أن نحرص في تربية الطفل منذ نشأته على أن يدرك قيمة العلاقات الطيبة بينه وبين غيره ، وأن نهيء له من الوسائل الجسمية والعقلية والنفسية ، مايكفل تكوينه ليكون مواطنا صالحا يجد في نفسه القدرة على أن يشترك مع غيره في تطوير مجتمعه، ويجعله أهلا لتحمل المسئولية مهما كانت جسيمة.

ومن هنا يجب دراسة أفراد الأسرة دراسة نفسية لنتبين العلل التي تعطل قواهم أو تضعف بنيتهم ، وأن نعمل على تقليل الدافع لإرضاء الذات حتى نتجنب حالة التوتر التي تحدث داخل النفس فتعوق صاحبها عن الشعور بالجماعة التي يعيش فيها ، وتجعله أميل إلى التبرم والخوف وعدم الثقة بنفسه وعدم الميل إلى الاختلاط الاجتماعي .

وإذا كان من البديهي أن كل إنسان يعمل على أن يثبت ذاته ، فلا بد أن يكون تحقيق الذاتية متجانسا مع السلوك الإنساني ، ومرتبطا بالبيئة التي حوله وبالقوانين والتقاليد التي تنتظم المجتمع ، وأن يفهم أن الغرض من الحياة هو خدمة الحياة عن طريق الانسجام مع القوانين الطبيعية للوجود ، والاتجاه

إلى الأفعال العليا . والأفكار الراقية .

وإذا كنا نوحى إلى الأطفال منذ الصغر أن يعملوا على إثبات ذواتهم ، فهذا يستلزم من الأسرة ان تشعر الأبناء بالمساواة وأن يكون الوالدان قدوة حسنة لهم ، وأن يفهما أبناءهما أن الأفكار المتناقضة لاتعيش ، وأن حقائق الحياة أكبر من الرغبات ، فيها ، وأن العيب ليس فى الرغبة بل فى الطلب ، لأن الطلب ينبغى أن يكون جزاء العمل أو مقترنا به ، وأن الطلب الذى لا يتناسب مع العمل ينوء بالفشل؛لأنه يخالف قوانين العدالة فى الحياة ، ولأنه دليل على قوة طاغية ، والقوة الطاغية انحراف عن قوانين الحياة ومقتضيات العدالة فلا يمكن أن يكتب لها الدوام .

ولهذا يجب أن نضع فى أذهاننا دائما كما نضع فى أذهان الأطفال أنه يجب العمل حبا فى العمل لا فى الجزاء ، وأن ننشد الخير حبا فى الخير . وبمثل هذه العقيدة يمكن أن يشب الفرد فى المجتمع مقدرا ارتباطه به ، ومقدرا مسئوليته إزاءه ، .. وتتعود نفسه احتمال الآلام ، ويعتاد بناء آماله ورغباته على أساس سليم ، وتصير علاقاته بالمجتمع علاقة ارتباط دائم منذ الصغر .

إن الشعور بالجماعة يتكون فى الطفل من المبادىء التى

تلقنها له الأسرة منذ صغره وهو يأخذ هذه المبادىء من المظاهر التى يراها أو يسمعها فينبغى أن تكون علاقة الأب والأم قائمة على المحبة والصفاء ، يلمس فيها الحنان عليه دون إشعاره بالترفع أو نهيه عن ابراز أفكاره وخيالاته ، وأن يعملا على أن يفهم أن التوافق مع الأطفال ... والرفاق من أسباب الانطلاق والمحبة والمرح وأن يتجنبا الذم فى الأسر الأخرى كما يتجنبا التحذير والابتعاد عن بعض الأطفال ؛ لأنهم أقل منزلة أو أقل جاها ، وأن يوحيا إليه الايمان بالله وبالمثل العليا ، وذلك بتوجيهه إلى الطاعة وبأداء مايجب لله وللوطن ، وأن يعملا على تكوين عادة التفكير العملى المنظم القائم على الحقائق والنتائج ، وتشجيعه على المناقشة ، وطبعه على حسن المعاشرة ، وتحمل المسئولية والتعاون مع أفراد المنزل ، والاشتراك فى حياة الأسرة ، واحترام رأى الغير ، ومنحه الحرية فى ابداء الرأى والصراحة ، وتهيئة الوسائل التى تمكنه من تذوق الجمال فى الطبيعة ، وتحمل المشاق فى الرحلات ، والاشتراك فى الأعمال الخيرة ، وتقديم الهدايا فى المناسبات ، وبخاصة لأبناء الفقراء ، وارتياد الصحارى والحدائق والاستماع إلى الموسيقى والقصص الدينية وقصص البطولة

إن قيادة الطفل فى مهارة وحكمة هو الذى يخفف حدة

الصراع بين الانفعالات النفسية ويتدرج به فى سلم التطور ويصقل غرائزه ويعليها ، ويزود كل طور بما يلزمه من العناية ، وتتجلى هذه القيادة فى مؤاخذته على الاساءة بالارشاد وامتداحه على العمل الطيب ، وتحويل الغرائز الهدامة وتوجيهها إلى ناحية البناء بتوجيه الغاية وجهة المهارة ، وتنمية الذكاء وعدم الاستئثار بالرياسة على اخوته أو رفاقه ، على أن يكون تحذيره فى حالة هدوء وبأسلوب رزين،لأن كثيرا مما يشوه النفوس يكون نتيجة التحذير والاهانة فى حالة الغضب والثورة .

فإذا ماتعدى دور الطفولة وجب أن نقوده إلى الانسجام مع الجو الخارجى ، وذلك بتعويده الاستقلال بشئونه ، وتدبير أمر نفسه .

إن كثيرا من أسباب الفشل فى الحياة يرجع إلى مايصيب الإنسان فى طفولته نتيجة التربية غير السليمة التى لاتراعى فيها الموازنة بين حاجة الإنسان النفسية وبين الحياة الخارجية ، فعدم الموازنة يسبب الاضطرابات النفسية والعصبية ، ويبرز العيوب ويضخمها وخصوصا حين يصطدم بمشاكل الحياة ،فاختلال هذا التوازن كما يصيب صاحبه بالعجز والضعف ، يسبب كثرة الجرائم كما يسبب الفشل فى العمل وفى الزواج والوظيفة والحرفة . .

العالم التطبيقى

أبنا كيف يستطيع المنزل أن ينمى الشعور الجماعى فى الطفل منذ ولادته حتى يتصل بالعالم الخارجى ، والواقع أن المنزل وإن كان له أثره الكبير فى تقويم الطفل وتربيته ؛ لأنه يعلمه اللغة ويكون رأيه فى الأمور ، ويوجه سلوكه فى المجتمع من العادات والكلام والطاعة والانطوائية والمسئولية . . وما يكتسبه فيه يظل معه فى كل مراحل حياته . . إلا أنه ليس وحده القوام على التربية ، فهناك عوامل أخرى لها وضعها فى حياة الإنسان وثقافته واتجاهات أفكاره ، ومن هذه العوامل المدرسة والصحافة والإذاعة والسينما ، ولأجل أن ينمو الشعور الجماعى عند الإنسان ويأخذ دوره فى التربية والتطور ، ينبغى أن يكون هناك توافق بين هذه العوامل من حيث الأهداف والاتجاهات حتى تستطيع أن توجه الأفكار توجيهاً بعيداً عن التعقيد ، ومتفقاً مع النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى استبانت خطوطها ، والتى نعمل للوصول إليها وهى تعميق مبادئ المجتمع العربى ، ومبادئ الاشتراكية التعاونية الديمقراطية ، وتحديد موقفنا من العالم الخارجى ، وشق

الطريق لإقامة المجتمع الصناعي الزراعي ، وخلق روح الإيجابية في حل المشكلات التي توارثناها من العهود السابقة .

ذلك لأن تضافر هذه العوامل هو الذي يبرز النواميس الأصيلة فينا ، ويجعل مظاهر حياتنا صورة صادقة لنسيج أرواحنا ، وماضي تاريخنا ، ويجعلنا نقدر معنى التضحية العاجلة للوصول إلى المنفعة الآجلة الدائمة .

بهذا التضافر ينشأ الأفراد على الاعتزاز بالقومية العربية وخلق المواطن الذي يكون سلوكه في حياته مسايراً لخدمة مجتمعه ، وينمو فيه منذ الصغر التفكير العملي والتمرين عليه ، واتباع طرق البحث العلمي فيما يتصل بحياته اليومية ، ويدرك أن القيم والفضائل ضرورية للسلوك الاجتماعي كما يدرك أن التدريب على الحياة التعاونية يساعد على تنمية الاقتصاد القومي ويرفع مستوى الإنتاج الفكري والمادي .

ولما كانت المدرسة هي أهم عوامل التربية وأول عالم جديد على الطفل بعد خروجه من المنزل ، فإن شأنها في التربية والتعليم أقوى أثراً ، والتقدم العلمي في مراحل التعليم هو الذي يساعد على تغيير أساليب التفكير تغييراً يمكن الإنسان من مواجهة هذا العالم المتغير بما يتمشى مع ظروف المجتمع وحاجاته ،

والعلاقات المتشابكة بين أفراده ، حتى يخلق منهم مواطنين يتعاونون تعاوناً إيجابياً فى توفير وسائل العيش ، و فهم القيم والتقاليد والنظم ، والإحساس بالمشكلات إحساساً يدفع إلى المساهمة فى الرفاهية ، ويجعل كل إنسان يتحمل نصيبه من المسئولية . .

لقد تحكمت عوامل كثيرة فى نظم التربية عندنا ، وكان لهذه العوامل أثر كبير فى تغيير وظيفة المدرسة ، واختلاف المناهج وطرق التدريس ، وتمييز بعض الطوائف عن بعض ، بقصد تفكيك روابط الأمة ، وحرمانها الكفايات من العلماء والفنيين ، هذا فضلا عما اتخذوه من الأساليب ، لإضعاف اللغة القومية والتربية الدينية لتفقد الأمة كيانها ، وعقائدها ، ووضع الاستعمار لنا نظما سياسية واجتماعيةواقتصادية كانت سبباً فى توجيه السياسية التربوية توجيها يحط من المستوى الفكرى والاجتماعى .

ومن هنا ظلت المدرسة الابتدائية قاصرة عن أن توجد للطفل نوع النشاط الذى يتلاءم مع استعداده ، وقاصرة عن تخريج الفرد القادر على كسب عيشة ، لأنها لم تعمل على خلق القدرة التى تدفعه إلى استغلال إمكانيات البيئة التى يعيش فيها والتفاعل مع المجتمع الذى يحيط به ، كما لم تستطع المدرسة

الإعدادية أن تعرف الطالب بالمشكلات التى يعانيها ولا التطورات التى تحدث له فى هذه الفترة من حياته ، وصارت المدرسة الثانوية مرحلة إعدادية للالتحاق بالجامعة ، يغلب عليها الاهتمام بالمواد الدراسية دون الاهتمام بالحياة العامة ، وعلى هذا المنوال سارت اغلب كليات الجامعة دراسة نظرية تربط الإنسان إلى مقعده ، وتجعله محصوراً فى دائرة معينة تخلق فيه التبرم والضيق ، وتجعل الطالب منطوياً فى حياته يستهلك أفكاره فى نفسه دون أن يستفيد منها المجتمع . وانحصرت آمال الطالب فى المراحل المختلفة من حياته التعليمية عند حدود الحصول على الشهادات ، ففقد بذلك حسن التميز ، وخمدت فيه قوة الإرادة فلم يقو على خوض معترك الحياة ، واضطربت فيه مقاييس الأخلاق والحكم ؛ لأن التعليم الذى تلقاه لم يتصل بالدوافع التى تعتمل بين جنبيه ، ولم يتمش مع عملية النمو الجسمى ؛ ولم تتوفر فيه الخبرات والمعارف التى يحتاج إليها فى حياته .

من أجل هذا ينبغى أن نوجه التعليم عندنا وجهة عملية فى كل مراحله ؛ لأن التعليم العملى هو الذى يبعث النشاط الذهنى ويخلق الابتكار العقلى والتوجيه الذاتى بما يولده من الأفكار فى مكانها الطبيعى ، وبما يخلقه من المؤثرات المختلفة التى يتأثر

بها المتعلم فى المصنع ، والمعمل ، والحقل ، والديوان ، والمستشفى ، والمدرسة ، وتتأثر بها حواسه المختلفة فتختمر معانيها وطرقها وأعمالها وأساليبها فى نفسه ، وبهذا تبرز مواهبه ، ويستبين العمل الذى يلائمه ، إن فنياً أو عملياً أو إداريا .

ويقتضى ذلك أن نغير من خطط التعليم ومناهج الدراسة ، وأن نعد المعلمين إعداداً يؤهلهم لتأدية رسالتهم على هذا الوجه ، وأن نتخذ من مجالس الآباء أداة فعالة تسهم فى هذه الناحية إسهاماً مادياً وفكرياً وعملياً ، حتى يستشعر الطلبة فى سائر المراحل التعليمية التناسق بين الحياة المنزلية والمدرسية والعملية ، وأن تعطى للمواد العملية أكبر عناية من الدروس ومن عددها ومناهجها فى المرحلتين الإعدادية والثانوية حتى نعد من الطلبة فى هذه السن جيلا عملياً علميا ، فنتوسع فى مناهج علوم الطبيعة والكيمياء والرياضة ، وتدريس العلوم الاقتصادية والسياسية ، وبخاصة فى الفرق العالية من المدارس الثانوية * .

---

* وانى أنتهز هذه الفرصة لأشيد بما رأيته فى جامعة أسيوط من نواحى النشاط العملى والعلمى مما يبشر بأننا مقبلون على حياة جديدة ، وأن القائمين على أمر الجامعات قد أدركوا رسالتها الحقيقية وأن التطوير الجديد للحياة الجامعية سوف يؤتى ثمرته العاجلة بإذن الله .

إن التوسع فى تدريس هذه المواد فى هذه الفترة من حياة الطلبة يكشف لنا الميول والمواهب والاستعدادات ؛ ولهذا نستطيع أن نحكم حكماً صادقاً على من يستحق أن يلتحق بالجامعة ، كما ينبغى أن نجعل نسبة من يلتحقون بالجامعة ممن تخصصوا فى التعليم العملى أكبر من نسبة المتخصصين فى التعليم النظرى ، لأننا فى مرحلة نحتاج فيها إلى الإكثار من التعليم التطبيقى لمواجهة النهضة التى نعمل للوصول إليها ، فينبغى أن توجه الجهود والأموال التى تنفق فى التعليم النظرى إلى التعليم التطبيقى .

ولتحقيق هذه الغاية يجب أن تفتح أبواب الجامعة لمن يتخرجون فى المدارس الفنية المتوسطة على أوسع نطاق ، كما يجب أن توزع الكليات على المناطق المختلفة للدولة حسب ما فى البيئة من مواد تساعد الدارسين على تطبيق دراساتهم تطبيقاً واقعاً ، وأن يكون التعليم كله فيها باللغة العربية ، لأن التعليم باللغةالقومية يمكن من فهم العلوم والتعمق فيها وإشاعة أساليبها ، وبهذا تأخذ مكانها من النفوس وتخلق فينا الرغبة للإقبال عليها ، واتباع طرق البحث العلمى التى نهتم بها .

الفن

لا نستطيع ان نغفل فى بحثنا هذا عاملا هاما من عوامل تربية الأمم والأفراد صغيرهم وكبيرهم ألا وهو الفن وذلك بما يخلقه فى النفوس من شعور بالحرية ، وبغض للقيود ، وإقبال على الحياة ، وتقديس للقيم وعبادة للجمال ...

ولا نحب أن ندخل فى الجدل القائم بين الآراء المختلفة التى تنظر إلى الفن على أنه خدمة لأسلوب معين فى الحياة ، ولا يعنينا أن نناقش المذاهب التى تجرد الفن من كل صلة بالحياة ، وتقصره على ذاتية الفنان بكل مافيها من عوالم وهمسات وأفكار ، دون نظر إلى تأثير هذه الأفكار فى المجتمع أو تأثير المجتمع فى هذه الأفكار ..

ولكننا ننظر إلى الفن من الناحية التى لا جدال فيها ولا خلاف عليها وهى مقدرته على خدمة الجماعة عن طريق التأثير عليها والوصول بها إلى غايتها .

وترجع هذه المقدرة إلى أسباب كثيرة : منها أسلوب الفن وصلته بالنفس الإنسانية ، ومنها إدراكه للتناسق الروحى

بين الإنسان والكون ، وكشفه بصورة اخاذة لجميع التناقضات في المجتمع البشرى تلك التناقضات التى يترتب عليها جميع ألوان الصراع الفكرى والاقتصادى ، وهو صراع ينتج عن كشفه ومعرفته نتائج إيجابية تؤثر تأثيرا مباشرا على نظام المجتمع وأسلوب حياته ،وتخلق بين أفراده الانسجام الذى نريده لحياتنا الجديدة ، وبخاصة فى هذه الفترة التى تتطلب الإعداد للمرحلة المقبلة من الحياة ، تلك المرحلة التى تتطلب تغييرا شاملا فى التفكير والعادات ونظم الحياة على اختلاف قطاعاتها .

ونحب أن نوضح مظاهر هذه المقدرة ، ونتكلم عن ربطها بمنابعها الأولى فى النفس والطبيعة ، لنصل إلى ما يمكن أن نوجه إليه فننا .

الفن ككل شىء يخدم الحياة لأنه تفسير للإنسانية ، وتفسير للطبيعة وتحديد لمناظرها ومظاهرها ، وتفسيره وتحديده ، هما اللذان يبرزان الجمال والتناسق . والفنون على اختلافها تبدعها مواهب إنسانية قادرة على أن تدرك الجمال ، وأن تقدمه فى الصورة المناسبة لطاقة الشعور به إلى الناس ، وهى باستغلالها لمظاهر البساطة فى صور الطبيعة وأحاسيسها تكون أقرب إلى نفوس الجماهير ، لأنها تعرض عليها مالا تدرك فتدركه ،

ومالا تحس فيتعمق إحساسها به ، وتحل لها مشاكلها بلمسات عاطفية تهون الصعب ، وتقرب البعيد ، وتحمس الجبان الرعديد حتى يندفع إلى ساحة الموت بشجاعة ، كما أنها تدفع كل فرد إلى ميدان العمل ، وتنزع به إلى الناحية الإيجابية فى مناحى الحياة .

الإنسان لا يدرك التناسق فى الطبيعة لتشعبها ، ولا يدرك التوافق فى كيانه وكيان المجتمع الذى يعيش فيه لقصور حواسه عن هذا الإدراك ، لكن الفنون لكشفها بالبداهة من قوانين الطبيعة ولإثارتها لكوامن النفس تكشف المجهول ، وتعبر عنه بالصورة النهائية للتعبير فتخاطب الذوق ، وتوقظ الإحساس وتنبه المشاعر عن طريق الحواس التى تنتقل منها إلى القوى الكامنة فينا .

الفن هو خلاصة الطبيعة والحياة يسلط عليها قوانينه التى تعطى لكل شىء وضعه المناسب المتناسق ، وتوافق بين الصور والألوان والأشكال ، وبين دوافع الحياة وما فيها من خير أو شر ، فيدفعنا هذا التوافق إلى السلوك الذى يزيل الشر ، ويزيح العقبات ، ويخفف الآلام .

ومن هنا كان الفن مأوى نأوى إليه كلما أثقلتنا متاعب الحياة ، فيجلو صدأ النفوس ، ويرهف الأحاسيس ، ويشذب

المطامع ، ويعلى الغرائز ، لأنه ينفذ إلى القلب والفكر ويصل بهما إلى القوة العليا فيتجلى جمالها واتساقها ، ويوجه الحس إليها ، فنطرب ونمرح ونتجاوب مع النواحى الخيرة فى الكون .

وهذا هو السر فى إصالته وصلاحيته للتربية القويمة ، أما غيره من الوسائل فسريع التغير والاختلاف .

ومن هنا أيضاً كانت عناية الدولة بالفن تأخذ أهمية بالغة وتقديرا عظيما ، وكان كل انقلاب فكرى فى حاجة إلى الفن بجميع صوره ــ حتى تثبت أركانه ، ويبرز موضع الجمال فيه .

وإن مقدرة الفن فى التأثير أمر تؤكده حوادث التاريخ فى كل العصور فما من ثورة قامت بها الجماهير إلا وكان للفن دور فيها ، وما من دعوة مذهبية أخذت فى الذيوع والانتشار والاتصال بنفسية الجماهير إلا وكان الفن هو الطريق الذى شقته إليها .

غير أن بعض ألوان الفنون تأخذ حظها فى أمة من الأمم فتكون أسبق من سواها إلى التطور ، وأسرع من غيرها إلى الاستقرار فى نمط مستقل لا مزيد عليه ... فالأدب مثلا فى أمة العرب فى تطوره واستقراره ، وتأثيره على الناس أسبق من الفنون الأخرى ــ وأقربها إلى نفوس الجماهير ، ولم يكن

للموسيقى ولا للرسم أو النحت أو التمثيل مثل هذا الأثر الذى للأدب ...

ويتجلى ذلك حين نطل على دعوة الخوارج والشيعة والدعوة العباسية فى الشرق والفاطمية فى المغرب ، بل إلى الدعوة الإسلامية نفسها بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولعل مرجع ذلك أن الظروف التاريخية التى أحاطت بالمجتمع العربى فى نشأته بالجزيرة لم تمكن للفنون الأخرى أن تأخذ حظها من النمو المطلوب ، وقد تركزت جميع المواهب العربية فى ألوان الفنون فى فن الشعر خاصة والأدب عامة ، وكان لشعور العرب بهذه الحقيقة باعث قوى على العناية بالشعر كفن يجمع فى إطاره كل مآثرهم الروحية والنفسية ، مما جعل له فى نفوسهم منزلة لا تسامى ، بل جعل له سلطة لا تقاوم من حيث الحكم والتقدير . . ولقد وصلت الحال فى بعض العصور أن كان الشاعر هو اللسان المعبر عن المجموع ، وقد أعطته هذه الصفة مكانة بالغة فى النفوس .

وكما كان للأدب فى الشرق هذه المنزلة ، كان للتمثيل عند اليونان منزلته وذيوعه ، وكان للموسيقى عند المصريين القدماء وعند الأمة الجرمانية نفس المنزلة وعين الأثر .

وإن أثر الفنون عند الجماهير وعند الأفراد ليتضح من ملاحظة تأثيرها عليها عند الاتصال بها بالعين أو بالسمع أو باللمس أو بكافة الحواس الأخرى المهيئة لاستقبالها ، فالإنشاد والغناء والتصوير والتمثيل تترك فى النفوس آثارا بعيدة المدى ، يصعب انتزاعها منها بجميع الأدلة العقلية ؛ لأنها ترتبط بالعواطف البشرية برباط متين ، بل هى تسلل إلى البداهة فى شعور الإنسان فتلتصق بها التصاقا يتعذر معه إزالتها بأى طريقة من طرق الإقناع .

ومتى وصلت الفنون إلى هذه الدرجة من التأثير ، فإن سلوك الجماهير يتجه فى الطريق التى ترسمه هى بالكلمة أو باللحن أو بالحركة أو باللون .

ولهذا ينبغى أن تتجه بفنوننا نحو الغاية التي توجه الفرد والمجتمع نحو أهدافنا المرسومة ، وكل فن لا ينزع هذا المنزع يكون عديم الجدوى، لأنه لا صلة له بالحياة ، ولا يعبر إلا عن ذات لا صلة لها بشىء ، ولا أثر فيها لحادث ، ولا إحساس فيها بالمجموع .

الفن الذى نريده . . .

الحياة قائمة على الاهتزاز والحركة فى كل ذرة من ذراتها ، وهذا الاهتزاز فيها هو سر تماسكها وقوتها ، والفن تموجات

فكرية تصل إلى منبع الحياة فى الإنسان وصولا طبعيا بديهيا ، وله أثره القوى فى اهتزازات التخيل . إذ أن هذه الموجات الفكرية تنتقل إلى القلب والذهن بواسطة الأثير ، فتتلقاها الموجات الاستقبالية المنبعثة من الحواس ، تلك الحواس التى تعتبر المؤثر الأول على الفرد ، وهى قابلة للإيحاء والتأثر والاستجابة بما تحمله من الموجات الانفعالية التى تنفذ إلى القوى المعنوية ، فتوجه الإنسان ، وتهيئه لاستقبال العمل راضيا أوكارها ، واستقبال يومه جادا أو عابثا ، نشطا أو متكاسلا .

والفن باتصاله بهذه القوى عن طريق الحواس ، يستطيع أن يوحى إليها وأن يؤثر فيها ، رضا أو كراهية سخطا أو اطمئنانا ، إقبالا أو إحجاما ؛ لأنه يتناول الفكرة النافذة والنظرة العميقة بعدأن يحيلها الفنان إلى إحساسات تلبسها ثوب العاطفة والانفعال ، وبهذا ينتشل ما فى النفس من رواسب ترزح تحتها ، ويوجهها إلى الكمال فتنشط ، وإلى الجمال فتقوى ، ويلون الحياة بألوانها البهاجة ، كما تلون الشمس الأزهار .

فكلما كانت هذه التموجات إيجابية قوية كلما كان أثرها فعالا فى صقل الروح ، وشحن الطاقات النفسية وإزالة ما بها من غشاوة ، وإجلاء صدئها وسأمها ، والسمو برغباتها وتحريرها

من قيود الزمان والمكان ، فتتوثق روابط الصلة بينها وبين المجتمع والبيئة ، وتستلهم عبرها من تاريخها البعيد والقريب .

وهذا هو تفسير قول « كارليل » (البطل هو الذى يردد لنا نفسه الملهمة ، وأقول الملهمة ، لأن ما نسميه بالعبقرية ، أو الصدق ، أو الموهبة ، أو صفة البطولة التى لا نجد لها اسما خليقا بها ، تدل على أن الأديب أو الفنان هو الذى يعيش فى أعماق الأشياء ، فى الحقيقى ، فى الإلهى ، فى الخالد الذى يوجد أبدا ، والذى لاتراه العامة لأنه يختفى وراء الزائل دائما أبدا ، والأديب هو الذى يذيع هذا الخفى للناس بالقول أو بالعمل ، وحياته إذن قطعة من قلب الطبيعة الذى لا يعتوره الفناء) .

وإننا لندرك ذلك حين نستمع إلى ماأنشد وغنى أيام العدوان الثلاثى الغاشم على مدينة بور سعيد وحين نقرأ الآداب التى كتبت ، أو ننظر إلى صورة من الصور التى رسمت ، فالفن فى التوقيع أو فى الصورة أو فى العبارة ، يطفر بقلوبنا إلى هذه الذكرى ، ويرتد بأذهاننا إلى الزمان والمكان ، فتنتفض نفوسنا ، وتتملكنا الانفعالات القوية ، فتدفع بنا إلى الحذر والتربص ، وتحدونا إلى الاستعداد للجهاد العارم ، وتحثنا على العمل المجدى .

ولئن كان للفنون هذا الأثر إلا أنه ينبغى أن ندرك أن

بعضها سلاح خطر لا يصح الركون إليه ؛ لأنه يستهوى الفرد ، فتذوب فيه شخصيته ويصير منطوى النفس منعزلا عن المجتمع.

ومن هنا كان للانتفاع بالفن حدوده ، فالإكثار من الأغانى المبتذلة ، والموسيقى التى توحى بالدل والميوعة هو فى الحقيقة إحياء للقوى السلبية فى النفوس ، ونحن لا نريد فى حياتنا نشازا ، وإنما نبتغى أوتارا تتألف منها حياتنا ويرسمها تاريخنا ، ثم نعزف على هذه الأوتار ، ما يحقق بناء أفراد أقوياء يحافظون على ما اكتسبوه . وما يؤكد تكوين مجتمع ينأى عن الفساد والفوضى . وهذا هو الفن الذى نريده ، لا نريد إثارة للغرائز البهيمية ، وإنما ننشد توجيها نحو القيم الروحية لأن الفن الذى يهدف إلى إثارة الغرائز ، هو معول يهدم قوميتنا ، ويودى بقيمنا الخلقية والاجتماعية ، ويقعد بنا عن الرفعة والنهوض ، وليس فى ذلك ما يوحى بالجمود ، لأن الفن ككل كائن يتطور تطورا ملموسا ، وإن كان غير ملحوظ ، لأنه بعيد عن مواطن الإدراك الحسى .

نريد فنا متطورا يتسع لتنظيماتنا الجديدة ، ولوحدتنا الفكرية ، ولحياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، ونريد من فنانينا تعمقا يسع المعارف الإنسانية ، ويمتد إلى العلاقات النفسية ،

فيعمل على انتظامها وتوافقها وتداخلها .

الفنان لبنة قوية فى بناء المجتمع الذى يعيش فيه ، وهو ذو موهبة فكرية وعاطفية ملهمة ، وهو بهذه الموهبة الرفيعة يسهم فى دعم هذا البناء بتفاعله معه ، والتعبير عن أمانيه ، ودعوته إلى تحقيق نفسه ، وإزاحة اليأس عن مشاعره ، والأخذ به إلى طريق الخلود الذى استقى منه هذا الإلهام .

فمن حقنا عليه أن يتجه بفنه إلى الأفكار التى رسمتها الدولة لحياتنا ، وأن يبرز هذه الأفكار إبرازا يصل إلى مشاعر الشعب وأحاسيسه حتى تحتل بؤرة الشعور منه .

ولست أحب أن يقال إن الفن عندنا ما زال قاصراً عن التعبير عن حياتنا ، فهناك من النغم والتلحين والصور ما استطاع أن يصل إلى قمة التعبير عن حياتنا ، ولكن هناك من المؤلفين والأدباء من لا تزال مؤلفاتهم الفنية بعيدة عما تهدف إليه الدولة من التربية القويمة والتوجيه إلى إقامة المصانع ، وتوسيع طرق الرى ، وبناء المدارس والمستشفيات ، والتنمية الاقتصادية بكل وسائلها ، والقومية العربية إلى غير ذلك من وسائل النضال فى سبيل تخطيط حياتنا .

إن مهمة السياسيين والاقتصاديين تقف عند التخطيط

والتنفيذ ، وأما مهمة الفنان فينبغى أن تتجه إلى التصوير الجذاب الذى يحتل من الأفراد مشاعرهم ، ويشحن طاقاتهم ، ويدفعهم إلى الإحساس بما فيها من جمال .

إن شبابنا لا يقبلون على القراءة التى تنير الأذهان ، لأنهم لم يجدوا الكتب التى تستهويهم ، فأقبلوا على مطالعة الغث من المؤلفات ، والتافه من الكتب ، واستمعوا إلى الموسيقى التى تخاطب منابع الشهوة فيهم ، واتجهوا إلى رؤية الأفلام التى ترضى غرائزهم ، ونظروا إلى الصور العارية ، وتطلعوا إلى كل ما يوحى بالإثرة واللذة دون ما يدفع إلى الجد والإيجابية والتضحية .

وإن على فنانينا يقع عبء هذه المسئولية ، فهم أقدر على التوجيه السليم بما أوتوا من قوة تكشف عن الجمال وترهف الأحاسيس .

الصحافة والتوجيه الاقتصادى

والحقيقة أن الصحافة نوع آخر من الفن له أثره فى التربية والتوجيه ، ونحب أن نتناولها بالبحث من ناحية التوجيه الاقتصادى ، ذلك لأن صحافتنا فى عهدها الجديد أصبحت ذات أثر فعال فى استنارة الأذهان من ناحية إحياء الآداب . . وإذكاء شعلة الوطنية ، ونشر الوعى الرياضى والفنى ، كما أن لها أثرها فى تبصير الشعب بحقوقه السياسية والاجتماعية ، ولا شك أن القائمين بأمر الصحافة يدركون إدراكا شاملا أن حياتنا الاقتصادية تتشابك فيها العلاقات بين أفراد المجتمع ، وتختلف فيها الاتجاهات بين الطوائف ، وكان لهذا التشابك وهذا الخلاف أثره فى إيجاد كثير من المشاكل التى تدعو القائمين على أمر الاقتصاد إلى بذل الجهود للتوفيق بين المصالح المتضاربة ، وخلق الأجواء الملائمة التى تحقق الانسجام والترابط ، وتوجد التوافق بين الرغبات المتباينة ، حتى يمكن أن نصل إلى تحقيق مستوى أفضل لبناء كياننا الاقتصادى . . . وحتى يمكن دفع عجلة الجهاز الاقتصادى ، دفعاً يحقق مصلحة البلاد ، فنتغلب على الظروف

الطارئة علينا او الناشئة من الزيادة المطردة فى تعدادنا عاماً بعد عام .

إننا الآن نعيش فى معترك دولى تتصارع فيه قوى مختلفة النظم ، ومذاهب متباينة فى اتجاهاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فينبغى أن نضع الأسس السليمة التى تكفل اجتياز العوائق التى تسد منافذ الإصلاح ، وتحطم القيود التى تعوق تحررنا ، وتجنبنا مخاطر العواصف والأنواء التى تهب علينا من كل فج ، وتحيط بنا من كل صوب .

ولن نستطيع حماية أنفسنا إلا إذا تخلصنا من الرواسب التى تأصلت فينا نتيجة الظروف التاريخية التى مرت بنا ، وكانت سبباً فى انحرافنا عن الرسالة التى خلقنا لها والأمانة التى حملناها ، ولهذا ينبغى أن نعىء الجهود المعنوية والمادية التى تدفع بالأمة إلى التكتل لبناء كياننا الاقتصادى ، وتوجه كل فرد فى الريف والمدن إلى إدراك ما يجب عليه نحو المجتمع الذى يعيش فيه ، والتضحية بالرغبات الخاصة فى سبيل المصلحة العامة التى يتطلبها المجتمع ،لتتهيأ له المقومات التى تحفظه وتحميه ، والتى تمكنه من أداء رسالته فى الوجود .

ولا تستطيع الحكومة أن تقوم بهذه الجهود بمجرد سن

القوانين والتشريعات ، لأن هذه القوانين إذا لم تجد لها استجابة من نفسية الشعب وتفكيره ، كانت كمن يضرب فى حديد بارد.

ولهذا كان دور الصحافة هو الدور الأول فى التوجيه الاقتصادى حتى تكون رأياً عاماً يتقبل هذه التشريعات وتوجه الأفكار والعقول إلى ما يراد منها ، فيقبل الأفراد والطوائف على الإيمان بها ويساهمون فى تحقيقها وإنجازها فتؤتى ثمرتها ونجنى أكلها فى أقصر وقت ومن أقرب السبل .

تستطيع الصحافة أن تبصر الأمة بأوضاعنا فى المجتمع الدولى ، وتوضح مركزنا من الناحية الاقتصادية ، وكيف أننا نعيش بين شقى رحى تدور علينا ، لتنال من عزائمنا ، فنرتبط بعجلتها ، وندور فى دائرتها ، ونخضع لسيطرتها ونفوذها .

وبهذا التوجيه الفكرى من الصحافة يدرك الشعب ، أننا بعد أن تخلصنا من الاستعمار وأذنابه وبعد أن حققنا ذاتنا ، أخذت الحكومة تعمل لتوفير الحياة الحرة الكريمة ، فرسمت سياستنا الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ، تلك السياسة المستمدة من بيئتنا وتاريخنا ومقوماتنا الجغرافية والتاريخية والحضارية ، والتى تتلاءم مع معتقداتنا ، وما رسخ فى نفوسنا على مدى الأجيال الطويلة التى عشناها ، وعلى مدى تاريخنا العريض ، لأن

محاكاة النظم التى اختطها غيرنا ، لا تحقق الأهداف الإيجابية التى نسعى للوصول إليها ، تلك الأهـداف التى أعلنها الرئيس وكفلها الدستور ، والتى تهدف إلى القضاء على الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الإقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال ، وتكوين جيش وطنى قوى ، وإقامة عدالة اجتماعية وحياة ديمقراطية سليمة ، تهيء الطريق للتحرر من الخوف والحاجة والذل ، وتجعلنا نؤمن إيماناً عميقاً بأن الرخاء العالمى يجب أن يتخذ مثلا عليا يسير عليها العالم بدلا من أن يتصارع لتحقيق المكاسب والمغانم على حساب الشعوب المستضعفة ، كما نؤمن بأن لكل فرد الحق فى أن يحيا حراً كريما فى يومه وفى غده ، وهذا الإيمان هو الذى يدفعه ليجاهد مع غيره من الأفراد لتحقيق المستوى اللائق من العيش فى ظلال النظم الاقتصادية القويمة متعاونا مع غيره تعاونا اجتماعيا قوامه النمو الاقتصادى الذى يرتكز على أسس راسخة وخطط مرسومة تبتغى الصالح العام لا صالح فريق أو فرد .

إن الصحافة بهذا التوجيه تؤدى رسالتها نحو التعبئة الفكرية ، وتسهم فى تربية الفرد تربية تحد من الجشع والأثرة ، وتحثه على الإسهام فى النهوض بالدولة حتى تدرك ما فاتها .

لقد انقسم العالم إلى قوميات تهدف كل منها إلى تقوية نفوذها ، وتقوية مكانتها فى المجال الدولى بما تحدده من أنواع عملاتها ، ومراقبة نقدها ، والمناداة بمبادىء الاكتفاء الذاتى والإغراق والرعاية وغيرها من الشعارات الاقتصادية ، فليس من الخير لشعبنا أن يترك فيه باب الاقتصاد مفتوحا يلجه كل من شاء ، لأن ذلك يتعارض مع ما تهدف إليه الحكومة من العمل لضمان رفاهية الشعب واستقراره المادى ورفع مستوى معيشته ، فينبغى أن يدرك المواطنون أن من صالحهم أن تقيد أبواب الاقتصاد بالقيود التى تتطلبها حاجة الأمة ومصلحتها ، حتى لا تضطرب أمورها المادية ، فتضطرب تبعا لها أحوالها النفسية والفكرية ، وتضيع معها قيمتها الذاتية والروحية .

والصحافة هى اللسان المعبر عن ذلك ، وهى الوسيلة إلى نقل هذه المشاعر إلى كافة الشعب بما تبسطه له من الأساليب ، وبما تبتدعه من وسائل التشويق والترغيب التى تنفذ إلى مشاعره فى سهولة ويسر ، فلا تقتصر فى ذلك على أسلوب المقال وحده وإنما تنوع هذه المعانى فى أساليب شتى من القصص والمحاورات والرسوم وغير ذلك من أساليب التشويق ، فيدرك القارىء والسامع أن الدولة حين تفرض قيودا على تصدير بعض المواد ،

وخاصة ما يتصل منها بالغذاء ، وحين تعمل على الحد من استيراد الكماليات أو وقف استيراد ماله شبيه من الإنتاج المحلى ، حدا للإسراف، وتوفيرا للعملات الصعبة للإنفاق منها على ما يستلزمه دعم الاقتصاد القومى كالآلات والمعدات ،وكذلك حين تعمل على حماية المصلحة القومية ، فلا تتعاون مع الدول المعادية أو الدول التى تسعى لهدم اقتصادنا القومى حتى لا يكون ذلك سببا فى تهريب الأموال وحتى لا يكون فتحا لأبواب الإثراء لأفراد على حساب الشعب بأسره ، وحتى لا يستهدف الإقتصاد لموجات الكساد والركود .

حين يدرك الشعب ذلك من الصحافة التى يقرأها كل يوم ، والتى تعتبر المرآة التى يرى فيها حياته ، والنافذة التى يطل منها على وجوده ، فإنه يتبين العوامل السليمة التى تسير عليها الدولة فى توجيه الاقتصاد وجهة الخير العام .

لم يكن للدولة قبل قيام الثورة أسس تخطيطية تعمل على دراسة مشاكلنا ورسم سبل حياتنا ، وتنسق بين الاتجاهات المختلفة التى درج عليها الأفراد والهيئات فكانت حياتنا الاقتصادية تقوم على الارتجال والفوضى ، وأخذ الدخل الحقيقى للفرد يسير نحو التدهور ، وأثرى أفراد قلائل على حساب الشعب .

فما أن حققت الثورة كياننا واستقلالنا ، وصارت أمورنا بأيدينا حتى سارعت إلى وضع سياسة حازمة تجنب البلاد المخاطر، وهى سياسة التخطيط العلمى والتنسيق وتعبئة الجهود سواء فى المدن أو فى الريف، وسواء فى القطاع العام أو الخاص ، حتى يمكن أن تحقق ما يكفل تنمية مطردة للاقتصاد القومى ، تصل بنا إلى تقليل التفاوت فى الدخل والثروة ، وتحقق التعاون ، وتخلصنا من الركود والجمود الذى طبع اقتصادنا زمنا طويلا ، فأوقفت التدهور المالى ، وأعادت الثقة إلى سوق القطن ، ثم أخذت بنظام تحسين التوزيع لرفع مستوى الطبقات العاملة ، ودفعها إلى الاهتمام بالتنمية ، ومساعدتها بالعمل على زيادة الصناعات ، وضمان نجاحها بما أعدته من وسائل التدريب المهنى .

ولما كان التوزيع وحده لا يكفى ، فقد أخذت بمختلف الوسائل التى تؤدى إلى زيادة الدخل ليتمشى مع زيادة السكان ، وليكفل زيادة رفع المستوى لهم ، واستقرار أحوالهم الاقتصادية بالمحافظة على مستويات الأسعار ، وخلق البيئة الملائمة للاستثمار وتشجيع الأفراد على المخاطرة بمدخراتهم فى إقامة الصناعات الجديدة ، وعملت على مواجهة الأعباء المتزايدة بزيادة الإيرادات

العادية عن طريق تحسين الجهاز الضريبي وتنظيم العلاقة بين الممولين ومصلحة الضرائب ، (ومولت المشروعات الإنتاجية) وأصدرت قروض الإنتاج والتشريعات اللازمة لتنظيم إصدار أذونات الخزانة .

كما أعدت للاستثمارات الخاصة وتمويلها طرقا ، منها تشجيع الادخار بواسطة صناديق التأمين وتوفير البريد ، ومنها ضمان عائد مجز يشجع على الاستثمار الخاص ، ويضمن له حقوقه .

كما أنشأت المؤسسة الاقتصادية ليتركز فيها التوجيه والتنسيق ، وشجعت البنوك على مد فروع النشاط الاقتصادى بما يتمشى مع حاجة البلاد .

واتخذت وسائل مختلفة لتوفير الأموال الأجنبية فتوسعت فى عقد اتفاقيات مع الكثير من الدول ، ودعمت مركز الجنيه فى الأسواق العالمية ، وسعت أيضا فى اتفاقيات الدفع ، فكان لذلك أثره فى نمو تجارة البلاد الخارجية ، وفتح أسواق جديدة بعد دراسة وافية لأسواق العالم .

هذه الجهود الجبارة تستطيع الصحافة أن تقربها إلى الأذهان ، فيعرف الشعب إلى أى حد تسهر الحكومة على مصلحته ، وتبذل الجهود الجبارة لتوفير الحياة الحرة الكريمة له ، وللمحافظة

على ما اكتسبه من حرية وللسير به نحو الأهداف التى تهيىء له المستقبل المرجو المنشود .

هذه الأسس التى تترسمها الدولة تجد الصحافة فيها ميدانا للكتابة ، ومادة لتغذية العقول ، فالعلاقة بين الممول ومصلحة الضرائب ميدان فسيح للرسومات والصور والقصص المشوقة ، يدرك منها الممول أن الضريبة ليست استغلالا وإنما هى إسهام فى نواحى النشاط الاقتصادى ، تكفل له زيادة الربح كما تكفل له الأمن ، وتساعد على نشر التجارة ، وتؤمن العقار ، وتوفر للأرض وسائل الرى، وبهذا الإيحاء من الصحافة يبادر الممول إلى أداء ما عليه راضيا ، فيوفر على الدولة كثيرا من الجهود التى تبذلها فى تعبئة الموظفين ورجال الشرطة وإجراءات الحجز والبيع ، وما إلى ذلك مما يعطل الوقت ، ويعوق الإنتاج ، كما يجعل الممول حريصا على تدبير المـال ، وتوفير ما عليه حتى يدفعه دون إرهاق .

وفى الدعوة إلى الاكتتاب فى أذونات الخزانة حث للأفراد والهيئات والشركات على الإسهام لفتح مجالات التنمية وتمويل المشروعات التى تهدف الدولة من إنشائها رفع مستويات الحياة فى قطاعاتها المختلفة ، تجد الصحافة أبوابا عديدة للإيحاء بالإشارات

والرموز والشعارات والقصص ، التى تدل على بناء الدولة وضمان المستقبل وتفتح أبواب العمل ، والقضاء على البطالة إلى غير ذلك من الفوائد ...

وفى حث الجماهير على الإقبال على صندوق التوفير ، تجد الصحافة سبقا صحفيا يدعو القراء إلى الإقبال على قراءة الصحف بما تنشره من الموضوعات التاريخية والاجتماعية، وبما تنشره من الحكم والأمثال والقصص المصورة والكلامية .

ويتجلى السبق الصحفى إزاء عقد الاتفاقات الدولية لا بنشر مواد الاتفاقية الجافة ، وإنما ببيان الأسباب التى دعت إليها ، والاتجاهات التى حفزت إلى اختيار دولة معينة ، والتسهيلات التي لاقتها الحكومة منها ، وفى ذلك مجال فسيح لنشر الثقافة الاقتصادية الدولية بأسلوب بعيد عن التعقيد ، وقريب إلى الأذهان والأفكار .

ويمكن للصحافة أن توجه الاقتصاد فى القطاع الزراعى عن طريق حث الزراع على استخدام التقاوى التى ترفع غلة المحاصيل ، فتتوفر لنا الحبوب الغذائية ، وكذلك التقاوى المنتقاة للقطن وقصب السكر والخضر ، ودعوتهم إلى إنشاء الجمعيات الزراعية التي تسهل لهم ما يلزمهم من الحصول على مواد الإنتاج من الأسمدة

والآلات ، ودعوتهم إلى التوسع فى زراعة أشجار الفاكهة والأشجار الخشبية ، وبيان طرق مقاومة الآفات الزراعية وطرق إبادتها حتى تستفيد البلاد بإنتاجها فلا يذهب هباء ، وكذلك طرق صيانة الغلات من التلف ، وتحسين أساليب التخزين، فقد دلت الاحصاءات على ضياع كثير من ثروتنا الاقتصادية بسبب الجهل بطرق التخزين ، وجهل مقاومة الآفات ، وعدم معرفة وسائل الرى والصرف .

كما يمكنها أن تدعو إلى حفظ الثروة الحيوانية وزيادتها عن طريق بيان مكافحة أمراض الحيوان ووقايته من تلك الأمراض وتحسين السلالات وزيادة الإنتاج منها .

هذا إلى جانب ما تدعو إليه من الإسهام فى استصلاح الأراضى الضعيفة والأراضى التي يمكن إصلاحها ببعض المجهودات .

ويكون الإرشاد ، بتخصيص أعمدة فى الصحف اليومية ، فقد أصبحت الصحف تدخل الآن إلى القرى «والعزب» ، وكل مكان فى الريف تقريبا ، فهناك يجتمع السامعون حول القراء ، وكما يستمعون للأخبار السياسية ويطالعون أخبار الجرائم والمسارح والسينما . . . يستطيعون أن يستفيدوا بما يقرأ عليهم من الإرشادات الزراعية التى تعنيهم .

ومن الناحية الصحية تستطيع الصحافة أن تخصص مكانا للإرشادات الصحية يوميا ، لتكوين البيئة الصحية التى تساعد على الوقاية من الأمراض وبخاصة فى البيئة الريفية ، من الدعوة إلى عدم تلويث مياه الشرب ، وتجنب الوسائل الضارة من الأطعمة وإرشاد الفلاح إلى طرق تدريبية يحفظ بها نفسه ، ويدير بها شئون حياته ، إذ لا شك فى أن تحسين الصحة العامة له أثره فى الإنتاج .

ومن الناحية الصناعية أيضا يمكنها أن ترشد الناس إلى كثير من الحرف اليدوية يشتغل بها من لا عمل له ، فيجد عملا ، ويسد بها حاجته وحاجة أهل القرية التى يعيش فيها ، وإن وسائل هذه الحرف كثيرة وموارده الأولية من الزراعة ومن الحيوانات التى يقوم الفلاح بتربيتها .

ومداومة حث الشعب على الاستغلال الكامل للطاقات الإنتاجية الموجودة عندنا ، وتوجيهه إلى الموارد الحالية ، ولو فى أبسط صورها هو مشاركة فى التوجيه الاقتصادى لها أثرها فى رخاء الدولة ، فالدعوة إلى التوسع فيما هو قائم من جهة وإنشاء الجديد من جهة أخرى ، وبيان الطرق التى تذلل الصعاب القائمة ، هو واجب من واجبات الصحافة لما لها من أثر

فعال فى التوجيه الفكرى والإيحاء النفسى . مع ملاحظةأن التنمية تقتضى الاستغلال الكامل للطاقة الموجودة عندنا ، وإن من الخطأ أن تتجه إلى إنشاء طاقة جديدة دون أن نعالج فى نفس الوقت الأسباب التى أدت إلى وجود إنتاجية معطلة .

لقد دلت الإحصاءات على أن ميل المستثمر إلى توجيه أمواله فى قطاعات الزراعة والتجارة والمبانى والنقل أكثر من ميله إلى الاتجاه نحو الصناعة ، ولهذا كانت وارداتنا من المواد الاستهلاكية تبلغ ثلاثة أضعاف وارداتنا من السلع الاستهلاكية ، وكان ذلك سببا فى أن أرصدتنا لا تقل دخلا ، مع أن دخلنا لا يمكن زيادته إلا إذا وجهنا هذه الحصيلة إلى الوسائل التى تنمى الطاقة الإنتاجية عن طريق شراء معداتها .

فإذا عملت الصحافة على بيان هذا استطاعت أن تؤثر على المستوردين ، فيتجهون هذه الوجهة ، ويدركون مصلحتهم ومصلحة الوطن .

وإن مجال هذا التوجيه متسع فى الناحية التجارية بدعوة التجار إلى تكوين الجمعيات التعاونية ، ضماناً لهم وراحة للمستهلك ، وتوفير الحاجيات له بأسعار مناسبة .

وكذلك دعوة الشباب إلى المشاركة فى التنمية الاقتصادية

بالعمل فى الميادين المختلفة وترك التكالب على الوظائف ،ووجوب البدء فى الصعود من أول الدرجات ، فليس هناك ثمرة بلا عرق وليس هناك مجد بلا ثمن ، وليس عيباً أن نعمل مهما كان نوع العمل ، وإنما العيب أن نركن ونتكاسل، ونكون عبئاعلى الحياة، وعبئا على الوطن وعلى الأسرة .

مثل هذه النواحى إذا عالجتها الصحافة بأساليبها المختلفة ، فإنها تشارك مشاركة فعالة فى توجيه الاقتصاد القومى ، فتسهل مهمة الأداة الحاكمة فى تشريعاتها ونظمها ، وتخطو بالمجتمع خطوات حاسمة وعارمة نحو التقدم المنشود .

هذا بعض من كل ، والقائمون على الصحافة أدرى بنفسيات الجماهير وطرق التأثير عليها ، وأعلم بالمنافذ التى يستطيعون أن ينفذوا منها إلى العقول والأفهام بدراساتهم ومرانهم وخبراتهم ، ونحن حين نتحدث فى هذا نعلم أننا لا نأتى لهم بجديد ، ونعلم مقدرتهم على أن يلجوا إلى الأحاسيس والمشاعر فوق كل ما نصف أو نقول ، فنشر العناوين الكبيرة وإبراز الموضوعات العامة ،والمعانى الهامة لها أثرها فى الإيحاء النفسى ، ولها دافعها القوى فى التوجيه نحو التنمية الاقتصادية ، والاقتناع بها . فكم من القراء من تجتذبهم شعارات الصحيفة وتنظيماتها وتعليقاتها .

إن مما يلاحظ أن الصحافة تبرز موضوعات الإثارة بوضعها فى مكان يستلفت الأنظار ، فى حين أن موضوعات الاقتصاد تسير على نمط واحد : مقتطفات من موضوعات قليلة تنشر فى مكان غير بارز ، وتحوى أرقاما ، أغلب الظن أنه لايلتفت إليها إلا من يهمهم الأمر من المشتغلين بالاقتصاد ، أو من المساهمين ، وهذا أمر يسير لا يكفى للتوجيه الاقتصادى الذى نريده ، والذى يعتبر ركنا أصيلا فى رسالة الصحافة .

إن رسالة الصحافة فى التوجيه الاقتصادى تقتضى منها أن تسلك أنواع السبل وأسهلها وأقربها فى التأثير ، حتى يقبل الأفراد على النواحى الاقتصادية إقبالا منبعثا عن رضا وطواعية ومنبعثا عن فائدة يلمسونها ويدركونها ، ويقدر كل فرد أثرها فى حياته وحياة المجتمع الذى يعيش فيه .

فإن فكرة صغيرة قد يكون لها أثر كبير فى حفز الهمم ، ورب رسم يمس العاطفة ويحرك الشجن ، فينزع رائيه إلى العمل وإن تعبيرا جميلا يصل إلى أغوار القلب والنفس قمين بأن يزيل عن الفكر الغشاوة التى تحجب الحقائق ، ورب إشارة عابرة تضىء جوانب الحياة ، فتجعل الأفكار المتنافرة تتقارب وتنسجم وتترابط ، وتتجه وجهة الخير ، وتستجيب استجابة فعالة لما تقصده

الدولة من تنظيم ، ورب بارقة من الأمل تشع من قصة أو رمز أو مثل فتنفض عن النفس غبار السلبية ، وتنفث فيها روح الإيجابية ، فتحس اللذة فيما كانت تحسبه ألما ، وتستشعر السعادة فيما كانت تظنه شقاء . وتستعذب المخاطرة بالمال والجهد بعد الحرص والجبن والكسل والتراخى .

إن الصحافة مدرسة روحية وعقلية ، والأفكار التى يتلقاها الشعب فى هذه المدرسة والآراء التى تشعها عليه هى التى تكون الرأى العام ، فعلى قدر هذه الأفكار يكون عمل المجتمع فإن ألقت إليه بأفكار الضعف عاش ضعيفا ، وإن ألهمته أفكار القوة والتضامن والتعاون ، عاش قوياً متضامنا متحدا ، إن ملأت صفحاتها بالمثل والقيم نزع الأفراد إلى هذه المثل ، وإن ملأتها بصور الخلاعة والخور سرت فى الشعب روح الخلاعة والاستهتار والأثرة ، وتهالك أفراده على الملذات الوقتية والشهوات الجسمية ، ونأى كل فرد بجانبه وصد بوجهه .

لقد تغير مفهوم كثير من الشمائل والمعانى ، فلم يعد الكرم والسخاء أن تسرف فى المال ، ولم تعد المخاطرة معنى منفرا ، إنما الكرم أن تسهم فى رقى الأمة ، فإسهامك فى إنشاء مصنع أو معمل أو إقامة متجر هو كرم تثاب عليه ويعود عليك ربحه ، لأنك

تفتح به باب الرزق لأسر ، وتقيم به كيان الأمة ، وتضع لبنة في بناء المجتمع، ومشاركتك في الإنتاج بجهدك العقلي أو الجسمي ثروة حقيقية قومية تؤثر بها في نظام المجتمع الاقتصادي ، وتغيير أسلوب معيشتك المادية والمعنوية بما يجعلك تتقبل برامج الإصلاح هو مشاركة منك ومخاطرة محبوبة في التنمية الاقتصادية.

ليس المال إلا ركيزة واحدة من ركائز الاقتصاد ، والإنسان بأسلوبه في الحياة دعامة قوية تساند المال بل تخلقه ، وتطور الفرد جسما وعقلا هو الذي يجعله يدرك مطالب نفسه ومطالب المجتمع الذي يعيش فيه ، ويحقق التوازن الاقتصادي بين حياته وحياة هذا المجتمع .

وتوجيه الصحافة هو الذي يجعل الفرد يغير من أساليبه في الحياة ، ويدرك هذا التوازن ، بينه وبين غيره ، ويدفعه إلى مشاركة الدولة في زيادة الاستثمار ، والجد في الادخار ، ثم يدفع بمدخراته إلى طرق التنمية التي تعمل الدولة على تنسيقها وتستخدمها استخداماً يحقق الخطة العامة لها ، وإذا تحققت هذه الخطة أمكن للدولة أن تتوسع في سائر الخدمات الاجتماعية ، وتهيء العيش الرغد والحياة الهنيئة لكل فرد .

إن في مقدور الصحافة أن تطبع الفرد وتطبع الأسرة

بطابع اقتصادى قويم يساعد الدولة على النهوض برسالتها ، وتحقيق الأهداف التى تعمل جاهدة لتحقيقها ، وذلك بما ترسمه الصحافة للمستهلك من وسائل التوسط فى الإنفاق ، والحد من النهم ، وبما تدعو إليه من التزام القصد ، وتجنب الإسراف ، والبعد عن المكيفات ، واجتناب ما يضر الجسم من المخدرات والمسكرات ، وبما ترسمه للأسرة من التوجيه الاقتصادى السليم الذى يبعدها عن المظاهر الكاذبة ، ويحد من حب التظاهر ، فلا تتمادى فى وسائل الزينة ، ولا تتهالك على شراء ما لا لزوم له ولا نفع فيه ، وتتناول ما هو أكثر فائدة وأقل تكلفة ، وبما توجهه إلى العامل من الحث على زيادة الإنتاج ، وإتقان العمل وتجويده ، والحرص على الوقت واستغلاله ، وبما توضحه للتاجر وصاحب المصنع والمتجر ومالك الأرض ، والقائمين على أمر الشركات من التزام واجباتهم الوطنية إزاء المستهلك والعامل والفلاح والصانع ، فيدركون أن هذا الالتزام سواء من الناحية الصحية أو الاجتماعية أو زيادة الأجر إن هو إلا زيادة فى الدخل تساعد على وفرة الإنتاج وزيادة الربح .

وبما تحث به الشعب من الإقبال على المنتجات المحلية ، وتشجيع التجارة الداخلية، لأن ذلك أساس التجويد والإتقان،

واساس التحرر . وفى ذلك شحذ للأذهان ، ودفعها إلى التفكير المجدى والأخذ بالعقول إلى السمو الفكرى والروحى والمادى .

هذه الموضوعات وأمثالها هى توجيه اقتصادى ، يكثر التوفير ، ويساعد على الإسهام فى المشروعات الصناعية والإنتاجية التى تنشئها الدولة ، لتوفر للأفراد حاجاتهم وتفتح أبواب العمل ، وتضمن استمراره ، فيرتفع مستوى الحياة ويستقيم اقتصادنا القومى .

إن دور الصحافة فى خلق رأى عام اقتصادى أقوى من سن القوانين ، وإصدار التشريعات ، والواقع أنه إذا كانت اتجاهات الشعب نحو معرفة الحياة السياسية والاجتماعية قد نمت وترعرعت ، فإن هذه الاتجاهات نحو حياتنا الاقتصادية ما زالت فى دور التكوين ، وما زالت الغالبية العظمى من الشعب بعيدة عن إدراك النظم الاقتصادية التى تسير عليها الدولة ، وبعيدة عن إدراك التيارات المختلفة التى تتجاذبنا فى الداخل والخارج — فسفينة إقتصادنا تسير فى بحر لجى ، تتقاذفها الأمواج المتلاطمة ، وتصارع العواصف الهوج ، ولولا أن قيادة دفتها بيد الربان الماهر الرئيس جمال عبد الناصر

ما استطعنا أن نصمد ، وما قدرنا أن نجتاز الجنادل والشلالات ، التى توضع أمامنا ، وما أمكننا أن نتغلب على المؤامرات والمكائد التى تدبر لنا .

ونحمد الله لأننا بفضل هذه الجهود العارمة قد وصلنا إلى بر السلامة فى أمان ، وأننا نعيش حياة اقتصادية تحسدنا عليها كثير من الأمم ، وتحتذينا الدول فيما نترسم من الخطوات ، ولم يبق إلا أن تدرك عامة الشعب ما يجب عليها إزاء حياتها الاقتصادية .

وفقنا الله ووفق القائمين عليها إلى خير ما نرجوه لوطننا الحبيب فى ظل قيادتنا الحكيمة وقوميتنا الصاعدة ؟

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١٠ — الشرق والإسلام ... ... للأستاذ عبدالرحمن صدقى

١١ — المريخ ... ... للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى

١٢ — فن الشعر ... ... للدكتور محمد مندور

١٣ — الاقتصاد السياسى ... ... للأستاذ أحمد محمود عبدالخالق

١٤ — الصحافة المصرية ... ... للدكتور عبداللطيف حمزه

١٥ — التخطيط القومى ... للدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن

١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... ... للدكتور ثروت عكاشه

١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبدالمنعم الصاوى

١٨ — طريق الغـد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى

الثمن قرشان فقط